المبحث الثاني: مظاهر الشرك العملية في ضوء القرآن الكريم

المطلب الأول: الشرك في الطاعة:

إن من مظاهر الشرك الكبيرة، وأنواعه الخفيَّة الخطيرة، وصوره المنتشرة الكثيرة، الشرك في الطاعة والحكم والاتباع، ذلك أن الله – تعالى – هو المتفرد بالخلق، فينبغي أن يكون متفرداً بالأمر والنهي والحكم، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام: ٥٧]، فلا أحد يستحق أن ينفذ حكمه على الخلق إلا الله – سبحانه وتعالى –، لأنه هو مالكهم، والمتصرف في شؤونهم، فلا حكم ولا أمر إلا له وحده، أما غيره – سبحانه – فلا تجب طاعته إلا بإيجاب الله لها[(١)].

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: "فإن الرب، والإله هو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وهو الذي يؤله ويعبد وحده لا شريك له ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصى، بحيث تكون الطاعات كلها تبعاً لطاعته"[(٢)].

والطاعة نوع من أنواع العبادة، فيجب أن تكون مختصةً بالله – تعالى –،

---

(١) انظر مجلة البيان العدد ٦٩ ص(١٢)، مقال بعنوان: الشرك، لعثمان ضميرة.

(٢) القول السديد ص(١٣٣).

والمقصود بالطاعة هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن صرف شيئاً منها لأحد من الخلق غير الرسول ﷺ فهو مشرك [١]، كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣١].

فقد بين الله – تعالى – في هذه الآية أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم – وهم العلماء والعباد –[٢] أرباباً من دون الله، وحكم عليهم بالشرك، مع أنهم لم يتقربوا إليهم بصوم ولا صلاة..، وإنما أطاعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال، كما في حديث عدي بن حاتم – رضي الله عنه – قال: ((أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه))، وفي رواية قال: ((قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم))[٣].

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص(٤٠٩).

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٦/٣٥٣-٣٥٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/٢٥٩ح(٣٠٩٥)، وابن جرير ٦/٣٥٤، والبيهقي في السنن الكبرى ==

وعن حذيفة – رضي الله عنه – أنه سئل عن قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا، كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه)) (١).

وعن أبي البَخْتَري(٢):﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، انطلقوا إلى حلال الله فجعلوه حراماً، وانطلقوا إلى حرام الله فجعلوه حلالاً، فأطاعوهم في ذلك، فجعل الله طاعتهم عبادتهم، ولو قالوا لهم: اعبدونا لم يفعلوا)) (٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند هذه الآية: "فقد بيّن النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا أنهم صلوا لهم، وصاموا لهم، ودعوهم من دون الله، فهذه عبادة للرجال... وقد ذكر الله أن ذلك شرك بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾(٤).

==

١١٦/١٠، وحسنه شيخ الإسلام في كتاب الإيمان ص(٨٤)، والألباني في صحيح سنن الترمذي ٥٦/٣ ح(٣٣٠٦)، وانظر تخريج أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد للشيخ فريح البهلال ص(٩١).

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣٥٤/٦، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١١٦/١٠.

(٢) هو سعيد بن فيروز الطائي مولاهم، الكوفي، ثقة، ثبت، فيه تشيع قليل، كثير الإرسال، توفي سنة ٨٣هـ، انظر التقريب ص(٢٤٠)، وتهذيب التهذيب ٧٢/٤.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣٥٥/٦.

(٤) مجموع الفتاوى ٦٧/٧.

فهذه الآية دليل على أن طاعة غير الله في التحليل والتحريم والحكم والاحتكام شرك في الربوبية، لقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا ﴾ لأن الطاعة بهذا الاعتبار من حقوق الربوبية.

يقول صاحب تفسير المنار في بيان معنى الشرك في الربوبية: "هو إسناد الخلق والتدبير إلى غير الله – تعالى – معه، أو أن تؤخذ أحكام الدين في عبادة الله – تعالى – والتحليل والتحريم من غيره، أي عن غير كتابه ووحيه الذي بلغه عنه رسله"(١).

كما أن في الآية دليلاً أن الطاعة شرك في الألوهية لقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

قال ابن كثير: "أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾، أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو ولا رب سواه"(٢).

ومن الآيات الدالة على أن طاعة غير الله في التحليل والتحريم، والحكم والتشريع شرك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ

(١) تفسير المنار ٢/٥٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٦٢.

لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ففي هذه الآية يقرر الله – تعالى – أن طاعة الشياطين في تحليل ما حرمه، والاستجابة لوساوسهم المناقضة لشرعه شرك بالله – تعالى –،"فهي فتوى سماوية من الخالق – جل وعلا – صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله"(١).

ومن الآيات الواردة في هذا الباب أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١].

ففي هذه الآية ينكر الله – تعالى – على المشركين اتخاذهم آلهةً من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله من الشرائع الباطلة، ويحلون لهم الحرام ويحرمون عليهم الحلال، ويصفهم بالشرك، ويتوعدهم بالعذاب الأليم يوم القيامة (٢).

يقول الشنقيطي عند هذه الآية: "فقد سمى – تعالى – الذين يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله شركاء، ومما يزيد ذلك إيضاحاً أن ما ذكره الله عن الشيطان يوم القيامة من أنه يقول للذين كانوا يشركون به في دار الدنيا

---

(١) أضواء البيان ١٧٠/٧.

(٢) انظر تفسير البغوي ١٢٤/٤، وتفسير السعدي ٦٠٩/٦.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[إبراهيم: ٢٢]، أن ذلك الإشراك المذكور ليس فيه شيء زائد على أنه دعاهم إلى طاعته فاستجابوا له كما صرح بذلك في قوله – تعالى – عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾...الآية [إبراهيم: ٢٢]، وهو واضح كما ترى"[(١)].

ومن الآيات الدالة على ذلك أيضاً قوله – تعالى –: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

وفي قراءة: "ولا تُشركْ في حكمه أحداً"بتاء الخطاب وجزم الكاف على النهي[(٢)].

ففي هذه الآية يخبر الله – تعالى – بأن له غيب السموات والأرض فلا يخفى عليه شيء، ثم يصف نفسه بكمال السمع والبصر قد أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصره بجميع المُبصرات، ثم يخبر عن انفراده بالولاية على جميع الخلق، فهو الذي يتولى تدبير أمورهم، وتصريف شؤونهم، وفي ختام الآية يقرر – تعالى – تفرده بالحكم والقضاء في خلقه قدراً، وشرعاً، وجزاءً [(٣)].

وعلى القراءة الثانية: ينهى الله – تعالى – عباده أن يجعلوا له شريكاً في الحكم والقضاء.

---

(١) أضواء البيان ١٧٣/٧.

(٢) وهي قراءة ابن عامر، انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٣١٠/٢.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ٢١٢/٨، وتفسير السعدي ٢٧/٥.

قال الشنقيطي في معنى هذه القراءة: "أي لا تشركْ يا نبي الله، أولا تشرك أيها المخاطب أحداً في حكم الله – جل وعلا – ؛ بل أخلص الحكم لله من شوائب شرك غيره في الحكم"(١).

ويقول – رحمه الله – عند هذه الآية: "ويفهم من هذه الآيات كقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون، وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخر"(٢).

ويقول – رحمه الله تعالى – أيضاً عند هذه الآية: "فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأن له غيب السموات والأرض؟ وأن يبالغ في سمعه وبصره لإحاطة سمعه بكل المسموعات، وبصره بكل المبصرات؟ وأنه ليس لأحد دونه من ولي؟ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؟"(٣).

أساليب القرآن الكريم في التحذير من شرك الطاعة:

لقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن هذا اللون من الشرك، وأوجب إفراد الله – تعالى – بالحكم والطاعة، وذم المخالفين لأمره المتبعين لغير شرعه، والمحكِّمين والمتحاكمين إلى غير وحيه، ووصفهم بالصفات القبيحة، وتوعدهم بالذلة والشقاء في الدنيا، والعذاب الأليم يوم القيامة، ذكر ذلك بأساليب متنوعة منها:

---

(١) أضواء البيان ٤/٩٠.

(٢) أضواء البيان ٤/٩١.

(٣) أضواء البيان ٧/١٦٥.

١) جعل التحاكم إلى شرع الله شرطاً في الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

يقول ابن كثير عند هذه الآية: "فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فليس مؤمناً بالله واليوم الآخر"(١).

ويقول ابن القيم: "قوله: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ ﴾ نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقه وجله، جليَّه وخفيَّه، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه، ولم يكن كافياً لم يأمر بالرد إليه ؛ إذ من الممتنع أن يأمر – تعالى – بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع، وقد جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان، ضرورة انتفاء الملزم لانتفاء لازمه، ولاسيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين، وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر، ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم وأن عاقبته أحسن عاقبة"(٢).

٢) جعل الحكم بشريعة الله هو الغاية من تنزيل الكتاب (٣)، كما قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ

(١) تفسير ابن كثير ٥٣١/١.

(٢) إعلام الموقعين ٤٩/١-٥٠ باختصار وتصرف يسير.

(٣) انظر نواقض الإسلام القولية والعملية ص(٢٩٤).

مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥].

وفي وصف القرآن بأنه منزل من عند الله – تعالى – إلى رسوله ﷺ الذي هو أفضل الخلق، وبالحق الواضح المبين، ترغيب في الاحتكام إليه، وحث على التمسك به [١].

٣) الإخبار بأن التحاكم إلى غير الله من صفات المنافقين، كما قال – تعالى–: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية حول هذه الآية: "ذم [الله] المدَّعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض

(١) انظر الحكم والتحاكم في خطاب الوحي لعبدالعزيز مصفى كامل ٨٣/١، ١٠٢.

الطواغيت[١] المعظمة من دون الله كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعي الإسلام وينتحله[٢] في تحاكمهم إلى مقالات الصائبة الفلاسفة[٣] أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك وغيرهم، وإذا قيل لهم: تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضاً، وإذا أصابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات، أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم قالوا: أردنا أن نحسن بتحقيق العلم ونوفق بين الدلائل الشرعية، والقواطع العقلية، التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات"[٤].

ويقول محمد رشيد رضا[٥]: "والآية ناطقة بأن من صد وأعرض عن حكم

---

(١) يقول ابن القيم: "أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكم الطاغوت وتحاكم إليه، والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله"، إعلام الموقعين ١/٥٠.

(٢) ينتحله:ينتسب إليه، انظر مختار الصحاح ص(٢٧١).

(٣) الصابئ لغة: الذي يترك دينه إلى دين آخر، ويطلق على عباد الكواكب والهياكل، وقيل: هم قوم لا دين لهم، وإنما هم باقون على فطرتهم، انظر الملل والنحل ص(١٢٥-١٤٥)، وتفسير ابن كثير ١/١٠٨.

والفلاسفة: هم محبو الحكمة باليونانية، وهم أصناف متعددة، انظر الملل والنحل ص(١٥١).

(٤) مجموع الفتاوى ١٢/٣٣٩.

(٥) هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين، ولد ونشأ في القلمون من أعمال طرابلس الشام، ثم رحل إلى مصر، وكان من رجال المدرسة العقلية الحديثة، ثم تحول إلى منهج السلف في آخر حياته، له مصنفات كثيرة من أشهرها تفسيره: تفسير المنار، توفي عام ١٣٥٤هـ، انظر الأعلام ٦/١٢٦، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ص(١٨٢).

الله ورسوله عمداً ولاسيما بعد دعوته إليه وتذكيره به، فإنه يكون منافقاً لا يعتد بما يزعمه من الإيمان، وما يدعيه من الإسلام"[١].

٤) تسمية الذين يحكمون بغير شرع الله كافرين، وظالمين، وفاسقين، وفي هذا تشنيع عليهم وترهيب لهم، وتنفير من فعلهم - ويأتي الكلام على حُكْم مَن حَكَم بغير شرع الله - وأما الآيات التي ورد تسميتهم فيها بالكفر والظلم والفسق فهي: قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] [٢].

٥) الاستفهام الإنكاري، كما قال - تعالى -: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، فالاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، والمعنى: كيف يعرضون عن حكم الله الذي أنزله على رسوله ﷺ ويطلبون حكم الجاهلية الفاسدة، مع أنه لا أحد أحسن حكماً من الله -تعالى- عند أهل اليقين والهدى [٣].

---

(١) تفسير المنار ٢٢٧/٥.

(٢) انظر أقوال العلماء في تفسير هذه الآيات في الحكم والتحاكم في خطاب الوحي ٢٥٣/١.

(٣) انظر فتح القدير للشوكاني ٧١/٢.

أقسام شرك الطاعة:

يمكن تقسيم شرك الطاعة إلى قسمين أساسين، وإن كان كل واحد منهما فرعاً عن الآخر.

القسم الأول: طاعة غير الله في التحريم والتحليل، وهذا شرك أكبر مخرج من الملة، وقد تقدمت الأدلة على ذلك، ومنها آية التوبة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد فسرها النبي ﷺ بأنها الطاعة في التحريم والتحليل كما في حديث عدي بن حاتم المتقدم[1].

لكن إن أطاع الإنسان مخلوقاً في تحريم حلال أو تحليل حرام مع اعتقاده تحريم ذلك، وأنه لا يجوز له أن يتعدى حدود الله، وأن هذا المخلوق ليس له حق في التحريم والتحليل، وإنما أطاعه لشهوة في نفسه معترفاً أنه عاص لله في هذه الطاعة، فليس هذا من الشرك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعوهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً...

---

(١) انظر ص(١١٣).

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحلال وتحريم الحرام ثابتاً [١]، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب"[٢].

القسم الثاني: الحكم بغير ما أنزل الله.

الحكم بغير ما أنزل الله إما يكون كفراً أكبر مخرجاً عن ملة الإسلام، وإما أن يكون كفراً أصغر لا يخرج عن الملة ؛ فأمّا النوع الأول – وهو المخرج عن الملة – فله عدة صور:

الأولى: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله – تعالى – ورسوله ﷺ.

الثانية: أن يعتقد أن حكم غير الله – تعالى – أفضل من حكمه، وأتم، وأشمل لحاجات الناس، وسواء كان هذا التفضيل مطلقاً، أو مقيداً فيما استجد من الحوادث.

الثالثة: أن يعتقد أن حكم غير الله – تعالى – مساوٍ لحكم الله ورسوله ﷺ.

الرابعة: أن يعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، وإن اعتقد أن حكم الله ورسوله ﷺ أفضل، لكن لم ير وجوبه.

---

(١) وفي المطبوع: "أن يكون اعتقادهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام ثابتاً"، وهو تصحيف أو خطأ مطبعي قطعاً.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/٧٠، وانظر القول المفيد ٢/٢٦٤.

الخامسة: إنشاء المحاكم الوضعية التي تحكم بالقوانين المستمدة من الشرائع الوضعية كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها.

السادسة: ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم، من حكايات آبائهم وأجدادهم.

السابعة: من لم يحكم بما أنزل الله – تعالى – إباءً وامتناعاً، وإن لم يجحده أو يكذِّبه.

أما **النوع الثاني** من الحكم بغير ما أنزل الله، فهو كفر أصغر لا يخرج من الملة، وهو ما إذا حكم الحاكم بقضية ما بغير ما أنزل الله، مع اعتقاده وجوب الحكم بما أنزل الله، وأن حكمه في هذه القضية خطأ وضلال، لكن إن استمر على الحكم بغير ما أنزل الله، وداوم على ذلك فإنه يكون كفراً أكبر، لأن ذلك يعتبر إباءً ورفضاً للشريعة كما سبق.

هذا حكم الحاكم بغير ما أنزل الله، أما المحكوم بغير ما أنزل الله، فإن كان قابلاً لذلك راضياً به فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً عن الملة، أمّا من اضطر إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله لتخليص حقوقه، التي لا يمكن أن يحصل عليها إلا عن طريق ذلك فإنه لا يكفر بذلك، بل يكون حكمه حكم المضطر، لكن عليه أن ينكر ذلك بحسب استطاعته، ولا أقل من الإنكار بالقلب بالبغض والكراهة[١].

---

(١) باختصار وتصرف من رسالة تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم ص(١٦-٢٤)، وكتاب نواقض الإسلام القولية والعملية ص(٣١١) وما بعدها، وضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة، لعبد الله القرني ص(١٧٤).

مظاهر الشرك في الطاعة:

الشرك في الطاعة له مظاهر كثيرة وصور مختلفة، فمنها: طاعة أهل البدع والضلال فيما أحدثوه، وشرّعوه من الأمور المخالفة للكتاب والسنة، وقد اغتر كثير من المسلمين بأناس من الجهلة المضلين – ظنوا فيهم العلم – حسنوا لهم البدع والشرك فأطاعوهم في ذلك [١]، وقد تقدم الكلام على هذا الأمر في مبحث التقليد في الفصل الأول [٢].

ومن مظاهر الشرك في الطاعة التقليد الأعمى للعلماء والفقهاء، فقد ابتلي كثير من المسلمين – مع الأسف الشديد – بالتقليد الأعمى لبعض العلماء، حيث ترى الواحد منهم لا يحيد قيد أنملة عن قول إمامه ؛ حتى وإن ظهر له أنه مخالف للكتاب والسنة، وقد ثبت عن الأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد – رحمهم الله تعالى – أنهم دعوا إلى الأخذ بالكتاب والسنة، وطرح آرائهم المخالفة لهما [٣]، ولكن الجهل والهوى يعمي ويصمُّ.

يقول ابن عباس ـــ رضي الله عنهما –"يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبوبكر وعمر"[٤].

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص(٤١٧).

(٢) انظر ص(٣٧).

(٣) انظر صفة الصلاة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ص(٢٣).

(٤) ذكره الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد ولم يعزه لأحد، انظر فتح المجيد ص(٣٢٠) وقد أخرجه أحمد بنحوه ٣٣٧/١، وحسنه ابن مفلح في الآدب الشرعية ٧٤/٢، وانظر تخريج كتاب أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد ص(٨٩).

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب[١] تعليقاً على هذ الأثر: فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر، وهما: همـــا، فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنن الرسول ﷺ بإمامه وصاحب مذهبـــه الـــذي ينتسب إليه، ويجعل قوله عياراً على الكتاب والسنة فما وافقه قبله وما خالفـــه رده، أو تأوله، فالله المستعان"[٢].

ويقول الشـــوكاني[٣] في تفســـيره لقولـــه - تعـــالى -: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ... الآية، [التوبة: ٣١]: "إن طاعة المتمذهب لمن يُقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة، مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقمت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا، وهـــذا صـــنيع المقلدين من هذه الأمة"[٤].

---

(١) هو الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، من أئمة الدعوة السلفية في نجد، اشـــتغل بالعلم والتدريس، وبرع في علم الحديث، من مؤلفاته: تيسير العزيز الحميد في شـــرح كتـــاب التوحيد، توفي مقتولاً عام ١٢٣٣هـــ، انظر علماء نجد ٢٩٣/١، والأعلام ١٢٩/٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص(٤١١).

(٣) هو الإمام العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فقيه مجتهد، من كبار علماء الـــيمن، مـــن مصنفاته تفسيره: فتح القدير، ونيل الأوطار والسيل الجرار وغيرها، توفي عام ١٢٥٠هـــ، انظر الأعلام ٢٩٨/٦، ومعجم المؤلفين ٥٣/١١.

(٤) فتح القدير للشوكاني ٤٩٦/٢.

ومن مظاهر الشرك في الطاعة: الحكم بغير ما أنزل الله كما تقدم، وقد انتشر في هذا المظهر الخطير عند كثير من المسلمين، لاسيما في هذا الزمان، حيث نبذوا شرع الله، وحكّموا أهواءهم الفاسدة، والقوانين الطاغوتية الوضعية، مما تسبب في ضعفهم، وتسلط الأعداء عليهم، وحلول البلايا والمحن في ديارهم.

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم[1] - وهو يتحدث عن الصور التي يكون فيها الحكم بغير ما أنزل الله مخرجاً عن الملة-: "الخامس: هو أعظمها وأشملها وأظهرها: معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية، إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً، وتفريعاً، وتشكيلاً، وتنويعاً، وحكماً وإلزاماً، ومراجع ومستندات.

فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع ومستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع، هي: القانون الملفّق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة، كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك.

فهذه المحاكم في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة

---

(١) هو الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مفتي الديار السعودية سابقاً، اشتغل بالتعليم والقضاء، له رسائل وفتاوى كثيرة، توفي عام ١٣٨٩هـ، انظر علماء نجد ٨٨/١.

والكتاب من أحكام القانون، وتلزمهم به، وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم، فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة؟ (١).

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: "وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السموات والأرض، فتحكيمه كفر بخالق السموات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأنه يلزم استواؤهما في الميراث، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان ونحو ذلك.

فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كفر بخالق السموات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق كلها، وهو أعلم بمصالحها - سبحانه وتعالى - عن أن يكون معه مشرع آخر علواً كبيراً"(٢).

ويقول الشيخ أحمد شاكر(٣) في تعليقه على قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]: "ومما يملأ النفس ألماً

(١) رسالة تحكيم القوانين ص(٢٠).

(٢) أضواء البيان ٩٣/٤.

(٣) هو العلامة أحمد بن محمد شاكر المصري، من كبار علماء الحديث في هذا العصر، خدم السنة خدمة كبيرة، تولى القضاء، ثم تفرغ للبحث والتأليف، توفي عام ١٣٧٧هـ، انظر الأعلام ٢٥٣/١، ومعجم المؤلفين ٣٦٨/١٣.

وحزناً: أنْ صار أكثر الأمم التي تنتسب للإسلام إلى هذا الوصف المكروه، ووقعوا في مثل هذا العمل الذي ذم الله اليهود من أجله، وجعل جزاء من يفعله خزياً في الحياة الدنيا وردّاً في الأخرى إلى أشد العذاب، فترى أكثر الأمم المنتسبة للإسلام يعتقدون صحة القرآن ويشهدون بذلك ويعرفونه، ويزعمون القيام بأمره، ثم هم يخالفونه في التشريع في شؤونهم المالية والجنائية والخلقية، ولا يستحون أن يعلنوا أن تشريعه وتشريع رسول الله في سننه لا يوافق هذا العصر،! ويجعلون من حقهم أن يشرعوا ما شاؤا، وافق الكتاب والسنة أم خالفه ! ويصطنعون قوانين أوْرُبَّة الوثنية الملحدة، ويشربونها في قلوبهم، يزعمونها أهدى وأنفع للناس مما أنزل إليهم من ربهم، ولا يتعظون بما أنذرهم به ربهم من المثل بالأمم قبلهم"[(١)].

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير لأحمد شاكر ١/١٧٥، وانظر عمدة التفسير أيضاً ٣/٢١٤، ٤/١٧٢.

المطلب الثاني: السحـــر

تعريف السحر:

السحر لغة: الأُخْذَة، وكل ما لَطُفَ مأخذه ودقَّ، وأصل السحر، صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، ويطلق السحر أيضاً على الخديعة، والفساد، وحسن البيان [١].

واصطلاحاً: اختلف فيه العلماء فمنهم من عرفه، ومنهم من ذهب إلى أنه لا يمكن تعريفه بتعريف معين، نظراً لكثرة أنواعه، واختلافها بحيث لا يمكن جمعها في تعريف واحد.

يقول الشنقيطي: "اعلم أن السحر في الاصطلاح لا يمكن حده بحد جامع مانع، لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعاً لها مانعاً لغيرها، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حده اختلافاً متبايناً"[٢].

وممن عرفه ابن قدامة[٣] في المغنى حيث قال: "هو عُقَد ورُقَى وكلام يتكلم به، أو يكتبه، أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور، أو قلبه، أو عقله من غير مباشرة له"[٤].

---

(١) انظر لسان العرب ١٩٥١/٤، ومختار الصحاح ص(١٢٠).

(٢) أضواء البيان ٤٨٢/٤.

(٣) هو الإمام العلامة موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي ثم الدمشقي، من أئمة الحنابلة، من مصنفاته: المغنى والمقنع وروضة الناظر وغيرها، توفي عام ٦٢٠هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١٦٥/٢٢، والبداية والنهاية ٩٩/١٣.

(٤) المغني لابن قدامة ٢٩٩/١٢.

حكم السحر:

والسحر من أنواع الشرك ؛ لقوله ﷺ: ((من عقد عُقدةً ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاُ وُكل عليه))، أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه –[١]، ووجه كونه شركاً: أنه لا يتأتى في الغالب إلا بالشرك [٢].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: "السحر يدخل في الشرك من جهتين:

من جهة ما فيه من استخدام الشياطين، ومن التعلق بهم، وربما تقرب إليهم بما يحبون ليقوموا بخدمته ومطلوبه.

ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب، ودعوى مشاركة الله في علمه وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وذلك من شعب الشرك والكفر"[٣].

والسحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع، وسيأتي ذكر الأدلة على تحريمه من القرآن، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)) [٤].

---

(١) أخرجه النسائي ١١٢/٧ ح(٤٠٤٩)، والطبراني في الأوسط ١٣٧/٢ ح(١٤٩٢)، وحسنه ابن مفلح في الآداب الشرعية ٨٢/٣، واحتج به ابن كثير في تفسيره ١٤٩/١، وضعفه الذهبي في ميزان الاعتدال ٣٧٨/٢، والألباني في ضعيف النسائي ص(١٦٣) ح(٢٧٦).

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد ص(١٨١).

(٣) القول السديد ص(٩٣)، وانظر حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(١٨٦).

(٤) أخرجه البخاري ٣٩٣/٥ ح(٢٧٦٦)، ومسلم ٩٢/١ ح(١٤٥).

قال ابن قدامة: "إن تعلم السحر وتعليمه حرام، لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم"[١].

وقال النووي: "عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع"[٢].

وقد اختلف العلماء في تكفير الساحر، فذهب الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك وأحمد – في رواية – إلى تكفيره، إلا أن بعض أصحاب أبي حنيفة قال: إن تعلمه ليتقيه ويتجنبه فإنه لا يكفر بذلك، وقال الشافعي: إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر، أو اعتقد جوازه – وإن لم يوجب الكفر – فإنه يكفر بذلك، وإلا فلا [٣].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: "وعند التحقيق ليس بين القولين اختلاف، فإن من لم يكفِّر لظنه أنه يتأتى بدون الشرك، وليس كذلك بل لا يتأتى السحر الذي من قبل الشياطين إلا بالشرك وعبادة الشيطان والكواكب، ولهذا سماه الله كفراً في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾[البقرة: ١٠٢].

وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر، وإن سمى سحراً فعلى سبيل المجاز، كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً، ولكنه يكون حراماً لمضرته،

---

(١) المغني ٢/٣٠٠.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٧٦.

(٣) انظر الإفصاح عن معاني الصحاح لابن هبيرة ٢/٢٢٦، والمغني لابن قدامة ١٢/٣٠٠، وتفسير القرطبي ٢/٣٣، وأحكام القرآن للجصاص ١/٦١، ونواقض الإسلام القولية والعملية ص(٥٠٥).

يعزر من فعله تعزيراً بليغاً"[١].

وقال الشنقيطي: "التحقيق في هذه المسألة – إن شاء الله – هو التفصيل ؛ فإن كان السحر مما يعظم فيه غير الله كالكواكب والجن وغير ذلك مما يؤدي إلى الكفر فهو كفر بلا نزاع، وإن كان السحر لا يقتضي الكفر كالاستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات وغيرها فهو حرام حرمة شديدة، ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر"[٢].

وقال النووي: "قد يكون – يعني السحر – كفراً، وقد لا يكون كفراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام، فإن تضمن ما يقتضي الكفر كفر وإلا فلا، وإذا لم يكن ما يقتضي الكفر عزِّر"[٣].

أساليب القرآن الكريم في التحذير من السحر:

ذكر الله – تعالى – السحر في القرآن الكريم، فذمه وحذر منه، وتوعد أهله، أوضح ذلك بأساليب متنوعة، منها:

١) الإخبار بأن الساحر كافر، كما قال – تعالى –: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ

(١) تيسير العزيز الحميد ص(٢٨٣) باختصار.

(٢) أضواء البيان ٤/٤٩٤ باختصار.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٧٦.

وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢-١٠٣].

فقد دلت هاتان الآيتان على كفر الساحر من وجوه:

أ) قوله – تعالى –: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ ﴾ فيه تبرئة من الله –تعالى– لنبيه سليمان ﷺ من الكفر، مع أنه لم يتقدم في الآيات السابقة أن أحداً نسبه إلى الكفر، وإنما الوارد اتهامه بالسحر كما في بعض الآثار، فدل ذلك على أن السحر كفر [(١)].

ب) في قوله – تعالى –: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ ﴾أثبت – سبحانه – كفر الشياطين بسبب تعليمهم السحر [(٢)].

جـ) بيَّن – تعالى – في قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡ ﴾ أن تعلم السحر كفر [(٣)].

(١) انظر تفسير ابن جرير ٤٩٣/١، وتفسير ابن عطية ٤٠٦/١.
(٢) انظر تفسير القرطبي ٣١/٢، ومعارج القبول ٣٣٣/١.
(٣) انظر تفسير القرطبي ٣١/٢، ومعارج القبول ٣٣٣/١.

قال الشوكاني: "في قولهما ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ أبلغ إنذار وأعظم تحذير، أي إن هذا ذنب يكون من فعله كافراً فلا تكفر، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد، وبين من تعلمه ليكون ساحراً وبين من تعلمه ليقدر على دفعه"(١)

د) حكم – تعالى – على من أحب السحر وآثره على وحيه واستبدله به بأنه ليس له في الآخرة من نصيب (٢).

يقول الشيخ حافظ الحكمي(٣): "وهذا الوعيد – يعني قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ – لم يطلق إلا فيما هو كفر لا بقاء للإيمان معه، فإنه ما من مؤمن إلا ويدخل الجنة، وكفى بدخول الجنة خلاقاً، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة"(٤).

هـ) في قوله – تعالى –: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ دليل على أنهم بتعلمهم السحر كفروا، لأنه – تعالى – نفى عنهم الإيمان.

---

(١) فتح القدير ١/١٧٨، وانظر معارج القبول ١/٣٣٣.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١/٥١٠، وتفسير ابن كثير ١/١٤٨.

(٣) هو الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي، ولد ونشأ في منطقة جيزان جنوب المملكة العربية السعودية، وتتلمذ على الشيخ عبدالله القرعاوي النجدي، فبرع وفاق الأقران، واشتغل بالتدريس والتأليف، من مصنفاته: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، توفي بمكة بعد الحج عام ١٣٧٧هـ، انظر الأعلام ٢/١٥٩، ومشاهير علماء نجد ص(٤٤١).

(٤) معارج القبول ١/٣٣٤.

قال ابن كثير: "وقد استدل بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر"(١).

وقال الجصاص الحنفي(٢) عند هذه الآية: "فجعل ضد الإيمان فعل السحر، لأنه جعل الإيمان في مقابلة فعل السحر، وهذا يدل على أن الساحر كافر"(٣).

٢) ومن أساليب القرآن الكريم في التحذير من السحر: نَفْيُ الفلاح عن الساحر، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[طه: ٦٩].

يقول الشنقيطي: "اعلم أن قوله - تعالى - في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ ﴾ الآية، يعم نفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ ﴾، وذلك دليل على كفره، لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفياً عاماً إلا عمن لا خير فيه، وهو الكافر"(٤).

ويقول القرطبي عند هذه الآية: "أي لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض، وقيل: حيث احتال"(٥).

٣) الأمر بالاستعاذة من السحر، كما قال - تعالى -: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

---

(١) تفسير ابن كثير ١٤٨/١.

(٢) هو أحمد بن علي الرازي الحنفي، المعروف بالجصّاص، من فقهاء الحنفية، من تصانيفه: أحكام القرآن، توفي عام ٣٧٠هـ في بغداد، انظر الأعلام ١٧١/١، ومعجم المؤلفين ٧/٢.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٦٥/١، وانظر معارج القبول ٣٣٤/١.

(٤) أضواء البيان ٤٧٩/٤.

(٥) تفسير القرطبي ١٤٩/١١.

ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [سورة الفلق].

والشاهد من هذه السورة قوله: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾، فإن المراد بها الاستعاذة من شر السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يسحرن بها [1].

قال ابن القيم وهو يذكر الشرور المستعاذ منها في هذه السورة: "الشر الثالث: شر النفاثات في العقد، وهذا الشر هو شر السحر، فإن النفاثات في العقد هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر، والنفث هو النفخ مع ريق، وهو دون التفل، وهو مرتبة بينهما، والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقدة نفخاً معه ريق فيخرج من نفسه الخبيثة نَفَس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي، والمراد بالنفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير، والله أعلم"[2].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٧٥٠/١٢، وتفسير ابن كثير ٦١٤/٤، وفتح القدير ٧٥٩/٥.

(٢) بدائع الفوائد ٣٦١/٢ بتصرف يسير.

٤) وصف السحر بالفساد والبطلان، كما قال – تعالى –: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٨١]، أي إن هذا الذي جئتم به أيها السحرة هو السحر بعينه، ولكن الله – تعالى – سيمحقه ويذهبه ؛ لأنه فساد في الأرض، والله – تعالى – لا يحب الفساد ولا يبقيه، بل يسحقه ويفنيه(١).

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي عند هذه الآية: "وهكذا كل مفسد عمل عملاً، واحتال كيداً، أو أتى بمكر فإن عمله سيبطل ويضمحل وإن حصل لعمله رواج في وقت ما، فإن مآله الاضمحلال والمحق.

وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله – تعالى –، وهي أعمال ووسائل نافعة مأمور بها، فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها وينميها على الدوام"(٢).

أنواع السحر، وآثاره، وعلاجه:

السحر له أنواع متعددة، وصور متنوعة، قديماً وحديثاً، ولا حاجة لذكرها ههنا (٣)، كما أن له آثاراً كثيرة، فمنه ما يقتل، ومنه ما يَمْرُض، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، ومنه ما يأخذ بالعقول، ومنه ما يأخذ بالأبصار (٤).

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٩٠/٦، وفتح القدير ٦٥١/٢، والتفسير المنير ٢٤١/١٢.

(٢) تفسير السعدي ٣٨٠/٣.

(٣) انظر تفسير الرازي ١٨٧/٤، وعالم السحر والشعوذة لعمر الأشقر ص(١٠٢) وما بعدها.

(٤) انظر معارج القبول ٣٢٧/١.

وأما علاجه المشروع فيكون بالطرق التالية:

١) استخراج السحر وإبطاله، وذلك بأن يدعو الإنسان المسحور الله – تعالى – أن يدله على مكان السحر، وإن كان المسحور مصروعاً فإنه يقرأ عليه حتى ينطق الجني المتلبس به ويخبر عن مكان وجود السحر.

٢) الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر، وذلك عن طريق الحجامة.

٣) الرقية الشرعية، وذلك بالقراءة على المسحور بما ورد من الآيات القرآنية، والأذكار والأدعية النبوية [١].

وقد انتشر السحر في كثير من بلاد المسلمين – مع الأسف الشديد – بسبب ضعف الإيمان في قلوب الناس، وبعدهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، وأخذ كثير ممن أصيبوا بالسحر يترددون على السحرة والدجاجلة والمشعوذين، ينشدون عندهم الشفاء ويسألونهم كشف ما حل بهم من البلوى، فإلى الله المشتكى، وبه – سبحانه – الملتجأ.

حد الساحر:

حد الساحر القتل، روى ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبدالله، وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم، وهو قول أبي حنيفة، ومالك، وأحمد [٢].

---

(١) انظر الطب النبوى لابن القيم في زاد المعاد ١٢٤/٤ وما بعدها، وكتاب فتح الحق المبين في علاج الصرع والسحر والعين للدكتور عبدالله الطيار ص(١٧٤).

(٢) المغني لابن قدامة ٣٠٢/١٢، وأحكام القرآن للجصاص ٦١/١.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أكثر العلماء على أن الساحر كافر، يجب قتله، وقد ثبت قتل الساحر عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وحفصة بنت عمر، وعبدالله بن عمر، وجندب بن عبدالله، وقد روي ذلك مرفوعاً عنه عن النبي ﷺ"(١).

وحسبي في هذا المقام أن أذكر أثراً واحداً من هذه الآثار وهو ما ورد عن عمر – رضي الله عنه –، فعن بَجَالَة بن عَبدَة(٢) قال: "أتانا كتاب عمر قبل موته بسنة أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ...، فقتلنا ثلاثة(٣) سواحر"(٤).

(١) مجموع الفتاوى ٣٨٤/٢٩.

(٢) هو بجالة بن عبْدَة التميمي البصري، كاتب جزء بن معاوية عامل عمر، ثقة، من كبار التابعين، انظر التقريب ص(١٢٠)، والتهذيب ٤١٧/١.

(٣) هكذا عند أحمد وأبي داود، وعند عبد الرزاق وغيره"ثلاث"، وهو الموافق لقواعد اللغة. انظر مصنف عبد الرزاق ١٨٠/١٠.

(٤) أخرجه أحمد ١٩٠/١، وأبو داود ٤٣١/٣ ح(٣٠٤٣)، وصححه ابن حزم في المحلى ٣٩٦/١١.

المبحث الثالث: مظاهر الشرك القولية في ضوء القرآن الكريم

المطلب الأول: شرك الدعاء :

الدعاء[١] له منزلة كبيرة، ومكانة عظيمة في دين الإسلام ؛ فهو من أعظم أنواع العبادة، بل هو العبادة كلها [٢]، وهو الدِّين كما سماه الله – تعالى – في القرآن في غير ما آية، قال – تعالى –: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، أي مخلصين له الدعاء[٣]، ولذلك اعتنى القرآن الكريم

(١) الدعاء لغة: السؤال والطلب، ويطلق أيضاً على العبادة، والنداء والاستعانة، والاستغاثة، والتَّسمية والاستعلام وغيرها، انظر لسان العرب ١٣٨٥/٣، وبصائر ذوي التمييز ٦٠٠/٢، والمفردات ص(٣١٥)، وقال ابن العربي: "الدعاء في اللغة والحقيقة هو الطلب"أحكام القرآن ٨١٥/٢.
وشرعاً عرفه الخطابي بقوله: "معنى الدعاء: استدعاء العبد ربه ــ عز وجل ــ العناية به، واستمداده إياه المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة"، شأن الدعاء للخطابي ص(٤).
وعرفه الشيخ عبد الرحمن بن حسن بقوله: "هو السؤال والطلب رغبة أو رهبة أو مجموعهما"، القول الفصل النفيس في الرد على المفترى داود بن جرجيس ص(٤٧).

(٢) كما في حديث النعمان بن بشير ــ رضي الله عنهما ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب ويقول: ((إن الدعاء هو العبادة))، ثم قرأ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، أخرجه أحمد ٢٦٧/٤، وأبوداود ١٦١/٢ ح(١٤٧٩)، والترمذي ٤٢٦/٥ ح(٣٣٧٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه ١٢٥٨/٢ ح(٣٨٢٨)، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي ٤٩١/١، وقال ابن حجر في الفتح: أخرجه أصحاب السنن بسند جيد ٤٩/١.

(٣) انظر: زاد المسير ١٣٩/٦.

بشأن الدعاء عناية كبيرة، وأولاه أهمية فريدة، حتى إنه أُفتتح بالدعاء واختتم بـــه، حيث أُفتتح بسورة الفاتحة واختتم بسورة الناس المشتملتين على الدعاء [١].

ولما كان الدعاء في دين الإسلام بهذه المنزلة كان صرفه لغير الله من أعظم أنواع الشرك وأخطرها وأشدها قبحاً، ولا غَرْوَ[٢] في ذلك فهو أصـــل شـــرك العالم [٣]، وهو أعظم أمر خالف فيه رسول الله ﷺ المشركين [٤]، وهو أكثـــر أنواع الشرك شيوعاً وانتشاراً بين الناس في كل زمان ومكان.

الآيات الدالة على أن دعاء غير الله – تعالى– شرك:

وردت آيات عديدة تدل على أن دعاء غير الله شرك، فمنها قوله -تعالى-: ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ** ﴾ [الأنعام: ٤٠ -٤١].

ففي هاتين الآيتين يأمر الله – تعالى – رسوله ﷺ أن يقـــول للمشـــركين المعاندين أخبروني[٥] عن حالكم حينما يترل بكم عذاب الله الذي حل بـــالأمم

---

(١) انظر الفتاوى ١٦/٤٧٨.

(٢) لا غرو: أي لا عجب، مختار الصحاح ص(١٩٨).

(٣) انظر مدارج السالكين ١/٣٧٥.

(٤) انظر مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبدالوهاب ضمن مجموعة التوحيد ص(٢٢٦).

(٥) قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ هذا تركيب مستعمل مشهور عند العرب، يستفتح به الكلام الذي يراد تحقيقه والاهتمام به، والهمزة فيه للاستفهام التقريري، ورأى فعل ماض مبني على السكون، والتاء تاء الخطاب في محل رفع فاعل، ولكنها تلازم حركة واحدة وهي الفتحة في جميع الأحوال ==

السابقة، أو تأتيكم القيامة بأهوالها وخزيها ونكالها في هذه الحالة هل تدعون أصنامكم الباطلة أم تدعون الله والواحد القهار؟ لا شك أنكم في مثل هذه الأحوال العصيبة ستخلصون الدعاء لله – تعالى – وتنسون ما كنتم تدعونه في وقت الرخاء من الأنداد والشركاء، فما هو الذي يحملكم على الشرك في وقت الرخاء إذا كنتم تعلمون أن من تشركون به لا يملك لكم نفعاً عندما تحتاجون إليه، هل عندكم برهان على ذلك أم هو الكفر والضلال؟ (١).

ومن الآيات الواردة في هذا الباب أيضاً قوله – تعالى –: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام: ٦٣ -٦٤].

وهاتان الآيتان بمعنى الآيتين السابقتين، حيث يذكر الله – تعالى – فيهما حال المشركين وأنهم في حال الشدة يخلصون الدعاء لله، وفي حال الرخاء والأمن والسلامة يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك وذلك بدعائهم غير الله.

==

سواء كان المخاطب مفرداً أو جمعاً مذكراً أو مؤنثاً، والكاف حرف خطاب والميم للجمع، والمفعول الأول لـ"رأى"محذوف تقديره"أرأيتم إياه"أي العذاب، أو"أرأيتكم عذاب الله"، والمفعول الثاني هو الجملة الاستفهامية"أغير الله تدعون"، وجملة"إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة"شرطية معترضة بين مفعولي الرؤية لا محل لها من الإعراب، ومعنى"أرأيتكم"في هذا السياق: أخبروني، انظر معاني القرآن للفراء ٣٣٣/١، والمفردات ص(٣٧٤)، والبحر المحيط ١٢٤/٤، والفتوحات الإلهية للجمل ٢٧/٢، وإعراب القرآن وبيانه ١٠٩/٣، والتحرير والتنوير ٢٢١/٧.

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٣٧/٢، والسعدي ٣٩٨/٢، والتفسير المنير ١٩٩/٧.

قال ابن كثير: "يقول – تعالى – ممتناً على عباده في إنجائه المضطر منهم من ظلمات البر والبحر أي الحائرين الواقعين في المهامة[١] البرِّيَّة وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة فحينئذٍ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾الآية، [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾أي جهراً[٢] وسراً ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا ﴾أي من هذه الضائقة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾أي بعدها، قال الله ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ ﴾بعد ذلك ﴿تُشْرِكُونَ ﴾ أي تدعون معه في حال الرفاهية[٣] آلهة أخرى [٤].

---

(١) المهامة: المفازة البعيدة، مختار الصحاح ص(٢٦٦).

(٢) أي جهراً بالضراعة وهي الضعف والذل، انظر المفردات ص(٥٠٦).

(٣) تفسير ابن كثير ١٤٤/٢.

(٤) الرفاهية: سعة العيش، مختار الصحاح ص(١٠٦).

ومما يدل على أن صرف الدعاء لغير الله شرك قوله – تعالى –: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣ -٥٤].

ففي هاتين الآيتين تقرير لما سبق بيانه في الآيات المتقدمة حيث يخبر الله – تعالى – فيهما أنه هو المتفضل بالنعم جميعها ظاهرها وباطنها، وأن أهل الشرك حينما يترل بهم الكرب ويشتد عليهم الأمر، ويحل بهم البلاء يبادرون إلى الالتجاء بالله وحده، ويفردونه بالدعاء والتضرع والرغبة لعلمهم أنه لا يقدر على كشف الضر عنهم غيره – سبحانه –، فإذا أنجاهم من الشدة وكشف ما بهم من الضر عادوا إلى الشرك فدعوا غيره، والتجؤوا إلى من سواه [(١)].

يقول الرازي[(٢)] عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ : "فبين – تعالى – أن عند كشف الضر وسلامة الأحوال يفترقون ؛ ففريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضُّر في أن لا يفزع إلا إلى الله – تعالى –، وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره، وهذا جهل وضلال، لأنه لما شهدت فطرته الأصلية وخلقته الغريزية عند نزول البلاء والضراء والآفات والمخافات أن لا مفزع إلا إلى الواحد، ولا

(١) تفسير ابن كثير ٥٩٣/٢، والسعدي ٤١٠/٤.

(٢) هو أبوعبدالله محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري، الرازي، الشافعي، فقيه أصولي متكلم مفسر، من تصانيفه تفسيره الكبير: مفاتيح الغيب، والمحصول في علم الأصول، توفي في هراة عام ٦٠٦هـ، انظر طبقات المفسرين ٢١٣/٢، والأعلام ٣١٣/٦.

مستغاث إلا الواحد، فعند زوال البلاء والضراء وجب أن يبقى على ذلك الاعتقاد، فأما عند نزول البلاء يقر بأنه لا مستغاث إلا الله – تعالى –، وعند زوال البلاء يثبت الأضداد والشركاء، فهذا جهل عظيم وضلال كامل"[(١)].

ومثل هذه الآيات قوله – تعالى –: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

ففي هذه الآية يخبر – تعالى – عن جوده وكرمه وإحسانه بعبده مع قلة شكر العبد له، وأن المشرك الكافر يلجأ إلى الله ويتضرع إليه وينيب ويخلص له الدعاء حينما يصاب بكُربة من مرض، أو فقر، أو وقوع في محنة، وذلك لأنه يعلم أنه لا ينجيه في هذه الحال إلا الله، ثم إذا منّ الله عليه بالعافية وتفضل عليه بالنعم نكص[(٢)] على عقبيه، ونسي ذلك الضر الذي دعا الله – تعالى – أن يكشفه عنه، ورجع إلى الإشراك بالله ودُعاء غيره من الأنداد والشركاء، فضل بنفسه وأضل غيره، وفي ختام الآية يتوعد الله – تعالى – هذا المشرك الذي بدل نعمة الله كفراً بالنار وبئس القرار، وأنه لن ينفعه ما بيده من متاع الدنيا الزائل، ولا يغني عنه من عذاب الله من شيء[(٣)].

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/٤٢.

(٢) نكص: أحجم ورجع، مختار الصحاح ص(٢٨٣).

(٣) انظر تفسير ابن جرير ١٠/٦١٨، وابن كثير ٤/٥١، والسعدي ٦/٤٥٢.

أقسام الدعاء في القرآن الكريم:

ينقسم الدعاء – باعتبار معناه[١] – في القرآن الكريم إلى قسمين:

الأول: دعاء المسألة: وهو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره أو دفعه [٢]، وتقدم بيان ما قاله العلماء في معناه وحقيقته في أول هذا المبحث.

الثاني: دعاء العبادة: وهو الثناء على الله – تعالى –، وامتثال أمره واجتناب نهيه، والتعبد له بأنواع العبادات، ووجه كون هذا دعاءً ؛ أن العابد إنما يريد بعبادته الفوز بمرضاة الله وجنته، والنجاة من عقوبته وناره، فهو في الحقيقة سائل وإن لم يأت بلفظ السؤال [٣].

وكلا نوعي الدعاء متلازمان ؛ يدل أحدهما على الآخر، فإذا أريد المسألة والطلب دل على العبادة بطريق التضمن [٤]، لأن الدعاء نفسه عبادة لما يشتمل عليه من الرغبة والتضرع والذل لله.

وإذا أريد به دعاء العبادة فإنه يدل على دعاء المسألة بطريق الالتزام [٥]، لأن العابد لله – تعالى – هو في الحقيقة سائل وإن لم يأت بلفظ السؤال فهو يسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، لأنه إنما يعبدالله خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه لا يخلو من ذلك [٦].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٥، وبدائع الفوائد ٣/٣.

(٢) وينقسم إلى تقسيمات أخرى باعتبارات أخرى، انظر رسالة الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية لجيلان بن خضر العروسي ١٠٥/١.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٣٧/١٠، وبدائع الفوائد ٣/٣، والشرك الأكبر ٢٦٢/١.

(٤) دلالة التضمن: هي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له، إرشاد الفحول للشوكاني ص(١٧).

(٥) دلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على أمر خارج عما وضع له، انظر المرجع السابق.

(٦) انظر مجموع الفتاوى ١٠/١٥-١١، بدائع الفوائد ٤/٣، الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ١١٥/١.

وقد ورد إطلاق الدعاء في القرآن على ثلاثة أوجه: دعاء المسألة، ودعاء العبادة، وعلى مجموعهما [١].

فمن الآيات الواردة في إطلاقه على دعاء المسألة ما يلي:

١) قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

٢) قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[يونس: ١٢].

٣) قوله - تعالى -: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

٤) قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩].

فالمراد بالدعاء في هذه الآيات وأمثالها دعاء المسألة، كما هو ظاهر من حال الداعي.

ومن الآيات الواردة في إطلاقه على دعاء العبادة:

١) قوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٦].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٥، انظر بدائع الفوائد ٣/٣.

٢) قوله - تعالى -: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٨ - ٤٩].

فالمراد بالدعاء في الآية الأولى: دعاء العبادة، ومما يؤكد ذلك، التعبير عنه بلفظ العبادة في نفس السياق.

٣) قوله - تعالى -: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥].

قال البغوي[(١)]: ﴿أَتَدْعُونَ﴾: "أتعبدون"[(٢)].

٤) قوله - تعالى -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

قال ابن الجوزي[(٣)]: "والمعنى: وأن ما يعبدون"[(٤)].

---

(١) هو الإمام أبومحمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي، الملقب بمحي السنة، فقيه محدث مفسر، من تصانيفه: تفسيره معالم التفسير، وشرع السنة، توفي عام ٥١٠هـ، انظر طبقات المفسرين للداودي ١٥٧/١، والأعلام ٢٥٩/٢.

(٢) تفسير البغوي ٤١/٤.

(٣) هو الإمام العلامة أبوالفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، الحنبلي، الحافظ المفسر الواعظ، له تصانيف كثيرة منها تفسيره: زاد المسير، والمنتظم في التاريخ، والموضوعات وغيرها، توفي عام ٥٩٧هـ في بغداد، انظر الأعلام ٣١٦/٣، وسير أعلام النبلاء ٣٦٥/٢١.

(٤) زاد المسير ٣٠٥/٦.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكل موضع ذُكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة أظهر ؛ لوجوه ثلاثة:

أحدها: أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم.

الثاني: أن الله – تعالى – فسر هذا الدعاء في موضع آخر، كقوله – تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢]، وقوله – تعالى –: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقوله – تعالى –: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢]، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم.

الثالث: أنهم كانوا يعبدونها في الرخاء، فإذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة"[(١)].

ومن الآيات الواردة في إطلاقه على مجموع الأمرين:

١) قوله – تعالى –: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فقد فسرت هذه الآية بنوعي الدعاء ؛ دعاء العبادة، ودعاء المسألة [(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/١٥.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٦٤/٢-١٦٧، وتفسير القرطبي ٢٠١/٢.

٢) قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

قال البغوي في معنى الآية: "أي اعبدوني دون غيري أجبكم وأثبكم وأغفر لكم، فلما عبر عن العبادة بالدعاء جعل الإثابة استجابة، ثم ذكر حديث النعمان ابن بشير - وقد تقدم ذكره -[(١)]، ثم قال: "وقيل: الدعاء: هو الذكر والسؤال"[(٢)].

٣) قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧].

قيل: المعنى: ما يبالي الله بكم ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه، وقيل المعنى: لولا استغاثتكم إليه في الشدائد [(٣)].

والأرجح - كما ذكر شيخ الإسلام - أن يحمل الدعاء في هذه الآيات ونحوها على المعنيين جميعاً ؛ دعاء العبادة، ودعاء المسألة، وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعاً [(٤)].

---

(١) انظر ص(١٣٦).

(٢)تفسير البغوي ١٠٣/٤.

(٣) تفسير ابن عطية ٤٦/١٢.

(٤) مجموع الفتاوى ١١/١٥.

أساليب القرآن الكريم في التحذير من الشرك في الدعاء:

لقد نهى القرآن الكريم عن دعاء غير الله وحذر منه، وذم أصحابه وتوعدهم، وذلك بأساليب متنوعة منها:

١) النهي الصريح، كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨].

وفي توجيه النهي للنبي ﷺ مع أنه أكمل الخلق إيماناً وأبعدهم من الوقوع فيه، بل هو المعصوم منه، تنبيه على قبح الشرك وشناعته وعظم جرمه.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]، وقوله: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم كل أحد كائناً من كان.

٢) الأمر بإخلاص الدعاء لله وحده، ومن المعلوم أن الأمر بالشيء نهي عن ضده، ومما ورد في ذلك قوله – تعالى –: ﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[غافر: ٦٥]، وتقدم أن الله – تعالى – سمى الدعاء في القرآن ديناً [(١)].

٣) بيان عجز المدعوين من دون الله عن إجابة من دعاهم، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

---

(١) انظر الدر المنثور ١٤٣/٣، وأكثر المفسرين على أن المراد بالدين في هاتين الآيتين العبادة، وقد تقدم أن الدعاء قسمان ؛ دعاء عبادة ودعاء مسألة، وأنهما متلازمان، وأن الدعاء الذي هو بمعنى السؤال والطلب أعظم أنواع العبادة.

كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٨٨].

وقال - تعالى -: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦].

ففي هاتين الآيتين يبيّن الله - تعالى - حال المدعوين من دونه، وأنهم لا يستطيعون نفع من دعاهم، ولا كشف الضر عنه أو دفعه، ومادام أنهم بهذه الحال فماذا يرجى من دعائهم والاستغاثة بهم؟.

٤) وصف دعاء غير الله - تعالى - بأنه غاية في الضلال والبعد عن الهدى، كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥- ٦].

"و"مَن"[هنا] استفهامية، والاستفهام إنكار وتعجب، والمعنى: لا أحد أشد ضلالاً وأعجب حالاً ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له دعاءه فهو أقصى حد في الضلالة"(١).

وقال - تعالى -: ﴿ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴾ [الحج: ١٢-١٣].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ١١/٢٦.

وفي هذه الآية وصف لمن يدعو غير الله بأنه في غاية البعد عن الهدى والفلاح، لأنه أعرض عن دعاء الله النافع الضار الغني القادر، وأقبل على دعاء من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، بل إن دعاءه هو الضرر الكبير والشر المستطير فبئس المولى وبئس العشير [١].

٥) وصف من دعا غير الله بالظلم، كما قال - تعالى -: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]، فدعاء غير الله ظلم للنفس عظيم [٢].

٦) تَوَعد من دعا غير الله بالعذاب يوم القيامة، كما قال - تعالى -: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقال - تعالى -: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

ففي هاتين الآيتين وعيد شديد لمن"دعا مع الله آلهة غيره بلا بيّنة من أمره، ولا برهان على ذلك، يدل على ما ذهب إليه، وهذا فيه تلازم، فكل من دعا غير الله فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً"[٣].

---

(١) انظر تفسير السعدي ٥/٢٨٠.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٦/٦١٨.

(٣) تفسير السعدي ٥/٣٨٦.

مظاهر الشرك في الدعاء:

قبل أن أذكر بعض مظاهر الشرك في الدعاء، لابد من بيان ضابط الدعاء الشركي الذي يحكم على صاحبه بالكفر والخروج عن ملة الإسلام ؛ فهو: دعاء الميت، أو الغائب، أو الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله، من مغفرة الذنوب وتفريج الكروب، وجلب النعم، ودفع النقم، ونحو ذلك من الأمور التي ليست في مقدرو البشر، فهذا كفر بإجماع المسلمين [١].

ومما يؤسف له جداً انتشار هذا النوع من الشرك بين المسلمين انتشاراً كبيراً، لاسيما في هذه الأزمنة المتأخرة، حتى إن كثيراً ممن ينتسبون إلى الإسلام فاقوا في شركهم هذا أسلافهم من مشركي الجاهلية الأولى وزادوا عليهم، حيث إن المشركين الأولين كانوا يخلصون الدعاء لله حينما يقعون في الشدائد، وتنزل بهم الكروب، وينسون شركاءهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة، وأما المشركون المتأخرون الذين ينتسبون إلى الإسلام فإنهم يدعون غير الله في الرخاء والشدة والبر والبحر، بل إن بعضهم يزعم أن دعاء غير الله من الأولياء والصالحين وغيرهم أسرع إجابة

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ١/١٢٤، ١/٣٥٠، والرد على البكري لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(٢٣١-٣٥١)، وتيسير العزيز الحميد ص(١٦٠) وما بعدها، وتحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود ابن جرجيس للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن ص(١٠٤)، والدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ٢/٤٨٣ وما بعدها، والشرك الأكبر ص(٢٦٨).

من دعاء الله وأنفع، ولذلك استفحل فيهم هذا الشرك حتى غرقوا فيه، يظهر ذلك في صور متنوعة ومظاهر كثيرة، فمنهم من يدعو النبي ﷺ ويسأله، ومنهم من يدعو آل البيت، ومنهم من يدعو الأولياء والصالحين، ومنهم من يدعو الطواغيت، والدجالين، ومنهم من يدعو الأموات والغائبين، حتى رفعوهم إلى مقام الألوهية ونسبوا إليهم بعض خصائص الربوبية، ونظموا في ذلك الأبيات الشعرية، وألفوا في تقرير شركهم هذا وتزيينه الكتب الخرافية، وكتبوا في الاستغاثة بغير الله الأدعية والأوراد الشركية، يسألون فيها غير الله غفران الذنوب، تفريج الكروب، ورد الغائب، وشفاء المريض، وجلب النعم ودفع النقم وغير ذلك، فهل هناك أعظم من هذا الشرك والتنديد، وهل من كفر أشد من هذا الكفر بالله الغني الحميد؟ !(١).

(١) انظر الرد على البكري ص(٣٠٢-٣٤٩)، والدرر السنية ٤١/٢، ١١٩، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني ص(٢٨)، وتيسير العزيز الحميد ص(١٦٠) وما بعدها، وتفسير الألوسي ٩٨/١١، وتفسير المنار ٤٢١/٥، ومعارج الألباب في مناهج الحق والصواب لحسين بن مهدي النعمي ص(٢٠٢) وما بعدها، والدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية ٥١٧/٢ وما بعدها.

المطلب الثاني: نسبة النعم إلى غير الله

إن من رحمة الله – تعالى – بعباده تفضُّله عليهم بالنعم الكثيرة الظاهرة والباطنة، حيث أنزل عليهم الخيرات، وأخرج لهم من كل الثمرات، وجعل لهم مما خلق ما يسترهم ويؤيهم من بيوت وملبوسات، وسخر لهم جميع ما في الأرض والسموات، كما قال – تعالى – ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[لقمان: ٢٠]، وقال – تعالى –: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[الجاثية: ١٣]، وقال – تعالى –: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة.

ولذلك يجب على الإنسان أن يضيف ما يأتيه من النعم إلى مسديها، ومُوليها، والمتفضل بها، ومعطيها، وهو الله – وحده –، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، فإن ذلك من تمام شكرها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الله – سبحانه – هو المعطي على الحقيقة، فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها، وساقها إلى من يشاء من عباده، فالمعطي

هو الذي أعطاه [١]، وحرك قلبه لعطاء غيره"[٢].

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: "الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً، وبذلك يتم التوحيد، فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر ليس معه من الدين شيء.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده، وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعى غيره، كما هو جار على ألسنة كثير من الناس؛ فهذا يجب على العبد أن يتوب منه وأن لا يضيف النعم إلا إلى موليها وأن يجاهد نفسه على ذلك ولا يتحقق الإيمان إلا بإضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً، فإن الشكر الذي هو رأس الإيمان مبني على ثلاثة أركان:

- اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره.
- والتحدث بها والثناء على الله بها.
- والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته، والله أعلم"[٣].

هذا وإن من أنواع الشرك الخفية[٤] التي يقع فيها كثير من الناس إضافة النعم إلى غير الله – تعالى – .

---

(١) أي المعطى المباشر من الخلق قد تفضل – تعالى – عليه بذلك العطاء وملكه إياه.

(٢) مجموع الفتاوى ٩٢/١.

(٣) القول السديد ص(١٤٠).

(٤) انظر تيسير العزيز الحميد ص(٤٣٨).

أساليب القرآن الكريم في النهي عن نسبة النعم إلى غير الله تعالى:

ورد النهي عن نسبة النعم إلى غير الله تعالى في القرآن الكريم بأساليب متعددة منها:

١- ذمُّ المشركين الذين ينسبون نعم الله – تعالى – عليهم إلى غيره، كما قال -سبحانه -: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

قال مجاهد: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب [(١)]، تعرف هذا كفار قريش، ثم تنكره بأن تقول: هذا كان لآبائنا فَرَوَّحُونا[(٢)] إياه".

وقال عون بن عبد الله[(٣)]: "إنكارهم إياها أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبْتُ كذا وكذا".

وقال آخرون: يعني ذلك: أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الذي رزقهم، ثم ينكرون ذلك بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة ألهتنا [(٤)].

---

(١) أي ما ذكر الله في هذه السورة من النعم، والتي من جملتها ما ذكر.

(٢) روَّحونا بمعنى: أعطونا، لسان العرب ١٧٧٠/٣، وفي رواية عند ابن جرير: فورثونا إياها، تفسير ابن جرير ٦٣٠/٧.

(٣) هو عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفي، ثقة، عابد، توفي قبل سنة عشرين ومائة، التقريب (٤٣٤)، والتهذيب ١٧١/٨.

(٤) انظر هذه الأقوال في تفسير ابن جرير ٦٣٠/٧، وقيل المراد بالنعمة: إرسال محمد ﷺ إليهم، ورجحه ابن جرير، المرجع السابق.

فتبيّن مما سبق أن الله – تعالى – ذم المشركين بسبب حجدهم نعَمَه، وذلك بإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً من الآباء والشركاء وغيرهم، وعدم إضافتها إلى المنعم الحقيقي بها وبأسبابها [(١)].

ومن الآيات الواردة في هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال القرطبي عند هذه الآية: "وقيل معناها: أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم: لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا ؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب"[(٢)].

ومن نسبة النعم إلى غير الله نسبة الغيث ونزول المطر إلى الأنواء [(٣)]، كما قال تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢]، و عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: "مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: ((أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد

(١) انظر شفاء العليل لابن القيم ص(٦٨).

(٢) تفسير القرطبي ١٧٩/٩.

(٣) الأنواء جمع نوء، قال ابن الأثير: وهي ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كلّ ليلة في منزلة منها، ومنه قوله – تعالى –: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس: ٣٩]، ويسقط في الغرب كلّ ثلاث عشرة ليلة منزلةً مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلها ذلك الوقت في الشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة، وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر"، وينسبون إليها، فيقولون: مطرنا بنوء كذا، النهاية لابن أثير ١٢٢/٥.

صدق نوء كذا وكذا)) قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢][(١)].

قال البغوي: "وهذا في الاستسقاء بالأنواء، وذلك أنهم كانوا يقولون إذا مطروا: مطرنا بنوء كذا، ولا يرون ذلك من فضل الله - تعالى -، فقيل لهم: أتجعلون رزقكم: أي شكركم بما رزقتم، يعني شكر رزقكم التكذيب، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مكانه"[(٢)].

وقال ابن رجب[(٣)]: "ولا تضاف النعم إلى الأسباب، بل إلى مسببها ومقدرها، فمن أضاف شيئاً من النعم إلى غير الله مع اعتقاده أنه ليس من الله

---

(١) أخرجه مسلم ٥٤/١ ح(٧٣)، قال النووي في شرحه لهذا الحديث: قال أبو عمرو ـــ يعني ابن الصلاح ـــ: "ليس مراده أن جميع هذا نزل في قولهم في الأنواء، فإن الأمر في ذلك وتفسيره يأبى ذلك، وإنما النازل في ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ، والباقي نزل في غير ذلك، ولكن اجتمعا في وقت النزول فذكر الجميع من أجل ذلك"، صحيح مسلم بشرح النووي ٦٢/٢.

(٢) تفسير البغوي ٢٩٠/٤.

(٣) هو الإمام الحافظ أبوالفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، محدث فقيه أصولي له مصنفات كثيرة منها: شرح جامع الترمذي، وجامع العلوم والحكم، ولطائف المعارف، توفي في دمشق عام ٧٩٥هـ، انظر الأعلام ٢٩٥/٣، ومعجم المؤلفين ١٢٨/٥.

فهو مشرك حقيقة، ومع اعتقاده أنه من الله فهو نوع شرك خفي"[١].

وكما ذم الله – تعالى – من ينسب نعم الله عليه إلى غيره من الخلق فقد ذم من ينسبها إلى نفسه، وتوعده بالانتقام وزوال النعم عنه في الدنيا، والعذاب يوم القيامة، مبيّناً – سبحانه – أن هذا هو مصير من قال بهذه المقولة الفاسدة، وافترى هذه الفرية الباطلة، من طغاة الأمم السابقة، كما قال – تعالى –: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الزمر: ٤٩-٥١].

ففي هذه الآيات يخبر الله – تعالى – عن حال الإنسان في الضراء والسراء؛ فهو حين يصاب بمضرة من فقر أو مرض أو أذى، أو شدة يلجأ إلى الله – تعالى – وحده ويدعوه، وينيب إليه.

وحين ينعم الله – تعالى – عليه ويعطيه من فضله يبغى ويطغى ويجحد نعمة الله، ويدّعي أنه إنما أوتيها لعلم الله – تعالى – بأنه مستحق لها وأهل، ثم بيّن – سبحانه – أن ذلك إنما هو ابتلاء واختبار يختبر الله به عباده ليعلم الشاكر من الكافر، ولكن كثيراً من الناس يجهلون هذه الحكمة العظيمة، حيث يزعمون أن ما يصيبهم من النعم إنما هو لفضلهم ومنزلتهم عند الله.

---

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب ص(٨٥) باختصار.

ثم يبين – تعالى – أن هذه المقولة الفاسدة قد نطقت بها أمم ماضية فأهلكهم الله – تعالى –، و لم تنفعهم أموالهم وجمعهم وما كسبوه في هذه الحياة الدنيا، و لم ينجهم من عذاب الله.

ثم يتوعد – سبحانه – من يسلك طريقهم، ويعمل بعملهم من هذه الأمة مبيناً أن مصيره سيكون مثل مصير تلك الأمم، فإن الله – تعالى – لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء [١].

٢– النهي عن نسبة النعم إلى غير الله — تعالى –، كما قال – تعالى –: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – عند هذه الآية: "الأنداد [٢]: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة[٣] سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوصُ البارحةَ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان [٤]، هذا كله به شرك"[٥].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦٢/٤، وتفسير السعدي ٤٨٢/٦.

(٢) الأنداد: جمع نِدّ، وهو المثيل والنظير، انظر مختار الصحاح ص(٢٧٢).

(٣) الصَّفاة: الصخرة الملساء، مختار الصحاح ص(١٥٣).

(٤) هكذا وردت بالرفع في المطبوع من تفسير ابن أبي حاتم، ولعلها مصحَّفة، أو مرفوعة بالحكاية.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٦٢/١، وقال الشيخ سليمان بن عبدالله: إسناده جيد، تيسير العزيز الحميد ص(٤٤٢).

ففي هذا الأثر عدَّ ابن عباس – رضي الله عنهما – نسبة النعم إلى غير الله شركاً؛ فإن قول الرجل: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص ونحو ذلك، من إضافة النعم إلى غير الله، لأنه – سبحانه – هو الحافظ، والمسلم من جميع الآفات، وأما قول الإنسان: لولا الله ثم فلان فهو جائز [١].

٣– القصص القرآني، ومن ذلك ما ذكره الله – عز وجل– عن قارون حينما طغى وبغى، واغتر بكنوزه وأمواله وجنوده، ولم يسمع لنصح قومه، وينتفع بموعظتهم، بل ادّعى كاذباً أن هذه الأموال والكنوز التي بيده إنما حصل عليها بعلمه وذكائه وخبرته ومعرفته بوجوه المكاسب [٢]، فكانت عاقبته ومآله أن خسف الله به وبداره الأرض، فكان في أسفل سافلين، فما منع نفسه وانتصر لها، وما كان له من دون الله من قوة ولا ناصر، كما حكى الله – تعالى – قصته في سورة القصص بقوله: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ

---

(١) انظر فتح المجيد ص(٣٤٩).

(٢) ــ وقيل المراد بقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ على فضل علم عندي علمه الله فيّ فرضي بذلك عني، وفضلني، انظر تفسير ابن جرير ١٠/١٠٧، وزاد المسير ٦/١١٣.

عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٧٦-٨١].

قال ابن القيم: "وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة؛ بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه، كما قال - تعالى -: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾، أي: على علم علمه الله عندي أستحقه به ذلك وأستوجبه وأستأهله.

والمؤمن يرى ذلك ملكاً لربه وفضلاً منه، منّ به على عبده من غير استحقاق منه بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فإذا لم يشهد ذلك رأى فيه أهلاً ومستحقاً فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح الفخر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩-١٠]، فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء"(١).

(١) الفوائد لابن القيم ص(٢٢٧)، باختصار.

أقسام نسبة النعم إلى غير الله:

نسبة النعم إلى غير الله – تعالى – لها ثلاثة أقسام:

الأول: أن يضيفها إلى السبب نفسه، مع عدم الاعتقاد بأنها من الله – تعالى–، فهذا شرك أكبر.

الثاني: أن يضيفها إلى سبب صحيح ظاهر، مع اعتقاده بأنها من الله، فهذا شرك أصغر.

الثالث: أن يضيفها إلى سبب صحيح ثابت ظاهر على وجه الإخبار، مع اطمئنان قلبه بأن المنعم الحقيقي هو الله – تعالى –، واستحضاره لذلك، واعترافه بأن هذا السبب من فضل الله ونعمته فهذا جائز [١].

مظاهر نسبة النعم إلى غير الله:

نسبة النعم إلى غير الله لها صور متعددة تجري على ألسنة كثير من الناس، يتلفظون بها متساهلين بشأنها غير مدركين لخطورتها، وقد سبق ذكر بعض الأمثلة في ثنايا بعض الآثار الواردة في تفسير الآيات، ومن ذلك قول بعضهم لو لم أبادر إلى الطبيب لاشتد بي المرض، ولولا مهارة قائد الطائرة، أو السيارة، أو السفينة لهلك الركاب، ولولا اشتغالي بتلك التجارة ما اغتنيت، ونحو ذلك من الألفاظ، فيجب على الإنسان الحذر من زلات اللسان وعثراته، لاسيما فيما له تعلق بالعقيدة.

---

(١) انظر لطائف المعارف لابن رجب ص(٨٥)، ورسالة الشرك الأصغر ص(١٨٦)، والقول المفيد ٣١٣/٢.

الباب الثاني

آثار الشرك في ضوء القرآن الكريم

وفيه فصلان:

الفصل الأول: آثار الـــشرك الدنيـــوية في ضوء القرآن الكريم.

الفصل الثاني: آثار الشرك الأخروية في ضوء القرآن الكريم.

الفصل الأول

آثار الشرك الدنيوية في ضوء القرآن الكريم

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الشرك أعظم الذنب وأظلم الظلم.

المبحث الثاني: الشرك يهدر الدم والمال.

المبحث الثالث: الشرك يقطع روابط الأخوة والمحبة والقربى.

المبحث الرابع: الذلة والخذلان والتخبط في الدنيا.

المبحث الأول: الشرك أعظم الذنب وأظلم الظلم

إن أعظم الذنوب عند الله – تعالى –، وأظلم الظلم [١]، وأنكر المنكرات، وأكبر الكبائر، وأشد القبائح ؛ الشرك بالله – سبحانه وتعالى – ؛ ذلك أنه هضم لحق الربوبية، واعتداء في حق الألوهية، وسوء ظن بالله – تعالى – وجحود لنعمه، وإنكار لحقوقه ؛ حيث يسوى المخلوقُ الضعيف، العاجز، الفقير، بالإله القدير، الغني الحميد، ولهذا كان الشرك"أبغضَ الأشياء إلى الله – تعالى – وأكرهها له، وأشدها مقتاً لديه، ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه"[٢].

وقد وصف الله – تعالى – الشرك في القرآن الكريم بأنه ظلم عظيم، وأخبر بأنه سوء ظن به – سبحانه –، وحينما سئل النبي ﷺ عن أعظم الذنب أخبر بأنه الشرك [٣].

ولما بين ﷺ لأصحابه أكبر الكبائر، وموبقات الأعمال ذكر الشرك في

---

(١) قال الراغب الأصفهاني: "الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما ينقصان أو بزيادة، أو بعدول عن وقته أو مكانه"المفردات ص(٥٣٧).

(٢) إغاثة اللهفان ٦٦/١، وانظر شرح الطحاوية ٤١/١.

(٣) كما في حديث ابن مسعود المتفق عليه قال: ((قلت يا رسول الله أيّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك)) وأنزل الله تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٩].
صحيح البخاري ٤٣٣/١٠ ح(٦٠٠١)، وصحيح مسلم ٩١/١ ح(١٤٢).

مقدمتها [١].

فمن الآيات التي وصف الله – تعالى – فيها الشرك بأنه ظلم عظيم قوله – تعالى – حكايةً عن لقمان الحكيم[٢] في أول وصية من وصاياه الوعظية لابنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

فإن الله – تعالى – لما ذكر منته على عبده لقمان بالحكمة[٣] أخبر عن وصاياه الحكيمة لابنه، والتي ابتدأها بالنهي عن الشرك مبيناً ومعللاً هذا النهي بأن الشرك ظلم عظيم، وإنها والله لوصية عظيمة، وموعظة غير متهمة تصدر من أبٍ شفيق، ناصح، ودود لابنه وفَلَذة[٤] كبده، وأحب الناس إليه، فما أجدرها

---

(١) كما في حديث أبي بكرة – رضي الله عنه – قال: ((كنا عند رسول الله ﷺ فقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر – ثلاثاً –؟: الإشراك بالله...)) الحديث.
أخرجه البخاري ٢٦١/٥ ح(٢٦٥٤)، ومسلم ٩١/١ ح(١٤٣).
وحديث أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قال رسول الله ﷺ: ((اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله...)) الحديث، وقد تقدم تخريجه في ص(١٢٨).

(٢) وقد اختلف المفسرون في لقمان هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ والأكثرون على الثاني، انظر تفسير ابن جرير ٢٠١/١٠، وتفسير ابن كثير ٤٥٢/٣، والدر المنثور ٣١١/٥.

(٣) قال ابن عباس – رضي الله عنه –: "الحكمة: العقل والفهم والفطنة من غير نبوة"، انظر الدر المنثور ٣١١/٥، وروي عن مجاهد نحوه، انظر تفسير ابن جرير ٢٠٨/١٠، وقال السعدي في تعريفه للحكمة: "هي العلم بالحق على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام"، تفسير السعدي ١٥٤/٦.

(٤) الفَلَذة: القطعة، انظر المعجم الوسيط ٧٠٠/٢.

بالقبول والامتثال، وما أحراها بالاستماع والإقبال [١].

وافتتاحه لهذه الموعظة بحرف النداء مع أن توجيه الخطاب إليه مغنٍ عن ندائه لحضوره ؛ تنبيه على الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام، فإنه يستدعي حضور الذهن.

ومخاطبته لابنه بلفظ التصغير ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ كناية عن الشفقة به، والتحبب إليه، وهو في هذا المقام يفيد الحث على امتثال هذه الوصايا، والأخذ بها، لأنها صادرة من أبٍ شفيق ناصح محب للخير [٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "ووجه كونه ظلماً عظيماً، أنه لا أفظع ولا أبشع ممن سوّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرة من النعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم، ودنياهم، وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟.

وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخس المراتب؟ جعلها عابدة لمن لا يُسْوي شيئاً فظلم نفسه ظلماً كبيراً"[٣].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤٥٣/٣، وتفسير السعدي ١٥٥/٦، وفي ظلال القرآن ٢٧٨٨/٥.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٥٣/٢١، ١٥٤.

(٣) تفسير السعدي ١٥٥/٦.

وقال الشيخ حافظ الحكمي: "الشرك أعظم الظلم ؛ لأن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ولا أعظم ظلماً من شكاية العبد ربه الذي هو أرحم الراحمين فيما أصابه من ضر أو فاته من خير إلى من لا يرحمه ولا يسمعه ولا يبصره ولا يعلمه، ولا يملك لنفسه ولا لداعيه من ضر ولا نفع ولا موت ولا حياة ولا نشور، ولا يغني عنه مثقال ذرة، وعدوله عمَّن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، ويفزع في قضاء حوائجه إلى من لا قدرة له على كل شيء ألبتة"(١).

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾(٢).

قال ابن جرير عند هذه الآية: "الذين صَدَقوا الله وأخلصوا له العبادة، ولم يخلطوا عبادتهم إياه، وتصديقهم له بظلم يعني بشرك، ولم يشركوا في عبادته شيئاً، ثم جعلوا عبادتهم لله خالصاً أحق بالأمن من عقابه"(٣).

وقال النووي: "لما شق عليهم أنزل الله – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ

(١) معارج القبول ٢٦٧/١.
(٢) أخرجه البخاري ٤٦٥/٦ ح(٣٤٢٩)، و مسلم ١١٤/١ ح(١٩٧).
(٣) تفسير ابن جرير ٢٥٠/٥.

عَظِيمٌ ﴾ وأعلم النبي ﷺ أن الظلم المطلق هناك المراد به هذا المقيد، وهو الشرك، فقال لهم النبي ﷺ بعد ذلك: ليس الظلم على إطلاقه وعمومه كما ظننتم، إنما هو الشرك كما قال لقمان لابنه، فالصحابة - رضي الله عنهم - حملوا الظلم على عمومه والمتبادر إلى الأفهام منه، وهو وضع الشي في غير موضعه، وهو مخالفة الشرع، فشق عليهم إلى أن أعلمهم النبي ﷺ بالمراد بهذا الظلم"[(١)].

والشرك بالله - تعالى - ظلم في حق الله - سبحانه - وظلم للنفس، وظلم لمن أُشرك به من الخلق.

فأما كونه ظلماً في حق الله - تعالى - فلأن أعظم حقوق الله - تعالى - على عباده هو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً كما في حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: ((بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا أخِرَةَ[(٢)] الرَّحل فقال: يا معاذ، قلت: لبَّيك رسولَ الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً...))[(٣)].

فالعبادة بجميع أنواعها حق الله - تعالى - وحده، وصرفها لغيره وضع لها

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤٣/٢.

(٢) أَخِرَةُ الرَّحْل وآخرته ومؤْخِرَتَه هي الخشبة التي يستند إليها الراكب على البعير، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٩/١.

(٣) صحيح البخاري ٣٩٧/١٠ ح(٥٧٩٧)، وصحيح مسلم ٥٨/١ ح(٣٠).

في غير محلها اللائق بها فهو ظلم، قال – تعالى –: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وأما كونه ظلماً للنفس فلأنه إذلال لها وإخضاع لمخلوق ضعيف لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، وخروج بها عن الفطرة السليمة التي فطرها الله عليها والتي هي توحيد الله – تعالى – والاستسلام له وحده دونما سواه، ظلم للنفس أيضاً لأنه حرمان لها من منافع التوحيد وثمراته العظيمة اليانعة في الدنيا والآخرة.

وأما كونه ظلماً لمن أُشرك به من الخلق، فلأنه غلو فيهم، ورفع لهم إلى منزلة لا تليق بهم، وإيذاء لهم في الدنيا، وعذاب لمن رضي بذلك منهم في الآخرة، ولذلك أخبر الله – تعالى – أن هذه الآلهة التي اتخذها المشركون في الدنيا يتبرؤون من عابديهم يوم القيامة وينكرون صنيعهم، وينبذون شركهم، كما قال – تعالى –: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٧-١٩]، وقال – تعالى –: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ

أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤٢].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧] (١).

ومن الآيات التي وصف الله - تعالى - بها الشرك بأنه ظلم ما حكاه - سبحانه - عن الفتية من أصحاب الكهف أنهم قالوا: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٍۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ [الكهف: ١٥].

ففي هذه الآية يخبر الله - تعالى - عن الفتية من أصحاب الكهف أنهم

(١) انظر مدارج السالكين ٢/٢٣٢، ورسالة الشرك وأنواعه لجفري أفندي وهاب ص(٣٥٥).

عابوا على قومهم اتخاذهم الآلهة التي يعبدونها من دون الله، وأنكروا فعلهم، وبيّنوا أنه ليس لهم برهان ولا حجة على ما ذهبوا إليه من الشرك، بل هو الجهل والضلال، ثم ختم الآية بالاستفهام الإنكاري ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾[(١)].

وكما وصف الله – تعالى – الشرك بأنه ظلم فقد وصف المشركين بأنهم ظالمون، كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦].

ففي هذه الآية ينهى الله – سبحانه وتعالى – رسوله ﷺ أن يدعو[(٢)] غيره من المخلوقات التي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً في الدنيا والآخرة، ثم يبيّن له – سبحانه – أنه إن فعل ذلك[(٣)] فإنه يكون حينئذٍ من الظالمين لأنفسهم ولغيرهم[(٤)].

ومن الآيات التي وصف الله – تعالى – فيها المشركين بالظلم أيضاً قوله – تعالى –: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١].

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٨٩/٨، وتفسير ابن كثير ٧٩/٣، وتفسير السعدي ١٥/٥.
(٢) والمراد بهذا الدعاء دعاء العبادة.
(٣) وحاشاه ﷺ من ذلك فهو المعصوم، ولكن المقصود تنبيه الناس على فظاعة الشرك بحيث أنه لو فعله أفضل الخلق كان من الظالمين، انظر التحرير والتنوير ٣٠٥/١١.
(٤) انظر تفسير ابن جرير ٦١٨/٦، وتفسير السعدي ٣٩٦/٣.

ففي هذه الآية ينكر الله – تعالى – على الذين اتخذوا معه – سبحانه – شركاء يطيعونهم في التحليل والتحريم، ويتبعونهم فيما ابتدعوه من الشرك والضلال، مبيناً أنه لولا الأجل المسمى الذي ضربه فاصلاً بين الناس[١] لعاجلهم بالعقوبة، وفي ختام الآية يتوعدهم الله – تعالى – بالعذاب الأليم، ويصفهم بالظلم بسبب ما اقترفوه من الإثم العظيم [٢]،"فهذا هو الذي ينتظرهم جزاء الظلم، وهل أظلم من المخالفين عن شرع الله إلى شرع من عداه؟"[٣].

وكما وصف الله – تعالى – الشرك بالظلم فقد أخبر بأنه سوء ظن به – سبحانه –، كما قال – تعالى – حكايةً عن نبيه إبراهيم – عليه السلام –: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧].

قال ابن القيم عند هذه الآية: "أي فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟ أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان؟ أم ظننتم أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاس فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟ أم ذليل فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القلَّة، ويتعزز به من الذلة؟ أم يحتاج إلى الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً"[٤].

---

(١) وهو يوم القيامة، انظر تفسير ابن كثير ١٢٠/٤.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١٢٠/٤، وتفسير السعدي ٦٠٩/٦.

(٣) في ظلال القرآن ٣١٥٣/٥.

(٤) مدارج السالكين ٣٦٤/٣، وانظر تفسير ابن جرير ٥٠٠/١٠، وكتاب تجريد التوحيد المفيد ص(٧٧).

المبحث الثاني: الشرك يهدر الدم والمال

إن الإنسان الذي كرّمه الله – تعالى – وشرّفه، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، هذا الإنسان إنما تكمن[١] قيمته، وتبقى مترلته بالتوحيد والإيمان، لأنه إنما خلق لعبادة الله وحده دونما سواه، كما قال – تعالى –: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا لم يقم بهذه المهمة التي خلق من أجلها فإنه حينئذٍ لا قيمة له ولا وزن، ولا قدْرَ له ولا فضل، أضل من البهيمة العجماء، وأخس من الصخرة الصّماء، ولذلك أباح الله – تعالى – دماء المشركين وأموالهم [٢]، وأمر بقتلهم وجهادهم، حتى يؤمنوا بالله وحده، ويَدَعوا الشرك وعبادة الأوثان [٣]، قال – تعالى –: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ

---

(١) تكْمن: تختفي، مختار الصحاح ص(٢٤١).

(٢) والمقصود: المشركون المحاربون، أما من كان له عهد أو ذمّة، فهو معصوم الدم والمال مادام ملتزماً بعهده وذمته، كما قال – تعالى –: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤]، انظر تفسير ابن كثير ٢//٣٤٨، ولا يخفى أن حلّ دماء الكفار المحاربين وأموالهم له شروط وضوابط ليس هذا مقام بيانها.

(٣) وقد اختلف العلماء في المشركين هل تؤخذ منهم الجزية، أو ليس لهم إلا الإسلام أو السيف، والأرجح والله – تعالى – أعلم أنها تؤخذ منهم إذا بذلوها ويُكفُّ عن قتالهم، انظر زاد المعاد ١٥٣/٣.

﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وهذه هي آية السيف التي أمر الله – تعالى – فيها بقتل المشركين، وأسرهم، وحصارهم، والتضييق عليهم، ومراقبتهم، وملاحقتهم في كل طريق ومنفذ، وذلك بعد انقضاء أشهر التسيير الأربعة التي حرم الله – تعالى – فيها قتال المشركين المعاهدين وقت نزول الآية، فيجب على المسلمين أن يبذلوا غاية مجهودهم في ذلك، ويستمروا في جهاد المشركين حتى يتوبوا إلى الله، ويدعوا الشرك وعبادة الأوثان، ويعبدوا الله وحده، ويلتزموا بشرائع الإسلام [(١)].

ويقول – سبحانه – آمراً عباده المؤمنين بقتال المشركين والقضاء عليهم حتى لا يبقى على وجه الأرض مشرك، ولا يعبد إلا الله وحده: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقال – تعالى –: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

ففي هاتين الآيتين يأمر الله – سبحانه – بقتال المشركين ثم يذكر المقصود من هذا القتال بقوله: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي شرك [(٢)]، فالحكمة من قتال

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣١٩/٦، وتفسير ابن كثير ٣٤٩/٢، وتفسير السعدي ٢٠٠/٣.

(٢) روي ذلك عن جمع من السلف، انظر تفسير ابن جرير ٢٠٠/٢.

المشركين هي أن يُزال الشرك من الأرض، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[١]، وليس المقصود سفك دماء المشركين وأخذ أموالهم، ولذلك إذا تاب المشركون عن الشرك وانتهوا عن مقاتلة المسلمين وأخلصوا العبادة لله وحده، فإنه لا يجوز قَتْلُهم ولا قتالهم، ولا تحل دماؤهم ولا أموالهم [٢].

وقال - تعالى -: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وفي هذه الآية يأمر الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يقاتلوا المشركين، مجتمعين على ذلك غير متفرقين، ومؤتلفين غير مختلفين [٣]، كما أن المشركين يقاتلونهم مجتمعين، وفي ختام الآية يحث - سبحانه - عباده على تقواه، ويرغبهم فيها، مبيناً أنه مع المتقين بعونه ونصره وتأييده [٤].

---

(١) ويلاحظ أن آية الأنفال زيد فيها اسم التأكيد ﴿كُلُّهُۥ﴾ ، قال ابن عاشور: "وذلك لأن هذه الآية أسبق نزولاً من آية البقرة، فاحتيج فيها إلى تأكيد مفاد صيغة اختصاص جنس الدين بأنه لله - تعالى -، لئلا يتوهم الامتناع بإسلام غالب المشركين، فلما تقرر معنى العموم وصار نصاً من هذه الآية عُدل عن إعادته في آية البقرة تطلباً للإيجاز"، التحرير والتنوير ٣٤٧/٩.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٢٠٠/٢، وتفسير ابن كثير ٢٣٤/١، وتفسير السعدي ٢٣٣/١.

(٣) وعلى هذا تكون ﴿كُلُّهُۥ﴾ حال من الفاعل، وهو واو الجماعة في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟﴾ ، وقيل: إنها حال من المفعول: ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيكون المعنى: قاتلوا جميع أنواع المشركين، انظر إعراب القرآن وبيانه ٩٧/٤، وفتح البيان لصديق حسن خان ١٢٧/٤، وتفسير السعدي ٢٢٩/٣.

(٤) انظر تفسير ابن جرير ٣٦٧/٦، وتفسير ابن كثير ٣٦٩/٢، تفسير السعدي ٢٢٩/٣.

وقد أمر الله – تعالى – المسلمين عند ملاقاة أعدائهم المشركين أن يعملوا السيف في رقابهم ويكثروا القتل فيهم، وذلك لكي تنكسر شوكتهم، وتَخْبُوَ[١] نارهم، ويبطل كيدهم، ويضمحل أمرهم، وحينئذٍ يجيء وقت أسرهم أو المنُّ عليهم، كما قال – تعالى –: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي عند هذه الآية: "أي ما ينبغي ولا يليق به[٢] إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، ويسعون لإخماد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم، لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم، فمادام لهم شر وصولة، فالأوْفق أن لا يؤسروا، فإذا أثخن في الأرض، وبطل شر المشركين واضمحل أمرهم فحينئذٍ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبقائهم"[٣].

وقال – تعالى –: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤].

قال ابن كثير عند هذه الآية: يقول – تعالى – مرشداً للمؤمنين إلى ما

(١) تخبو: تستتر، المعجم الوسيط ٢١٣/١.

(٢) أي بالنبي ﷺ.

(٣) تفسير السعدي ١٩٠/٣.

يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ ﴾ أي أهلكتموهم قتلاً ﴿ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ ﴾: الأسارى الذين تأسروهم ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم [١]، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطوهم عليه [٢].

وقد دلت السنة أيضاً على أن المشرك غير معصوم الدم والمال، فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)) [٣].

قوله: ((عصموا)) أي: منعوا.

وقوله: "وحسابهم على الله"أي في أمر سرائرهم [٤].

---

(١) وقد دل الكتاب والسنة على أن الإمام مخير في أمر الأسرى بين أربعة أمور: إمّا قتلهم، أو استرقاقهم، أو فدائهم بالمال، أو بأسرى مسلمين، أو المنّ عليهم وإطلاق سراحهم، يختار من ذلك ما يرى فيه المصلحة للمسلمين، انظر زاد المعاد ١٠٩/٣.

(٢) تفسير ابن كثير ١٨٦/٤، وانظر أحكام القرآن لابن العربي ١٧٠١/٤.

(٣) أخرجه البخاري ٧٥/١ ح(٢٥)، ومسلم ٥٣/١ ح(٢٢).

(٤) فتح الباري ٧٤/١.

وعن أبي مالك[١] عن أبيه - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم مالـــه ودمـــه، وحسابه على الله)) [٢].

(١) هو أبومالك الأشعري، وقد اختلف في اسمه فقيل عبيد، وقيل: عبدالله، وقيل: عمرو، وقيل: عامر ابن الحارث، وقيل غير ذلك، صحابي، روى عن النبي ﷺ، توفي في طاعون عَمَواس سنة ١٨هـــ، انظر تقريب التهذيب ص(٦٧٠)، وتهذيب التهذيب ٢١٨/١٢، والإصابة ١٦٨/٧.

(٢)أخرجه مسلم ٥٣/١ ح(٢٣).

المبحث الثالث: الشرك يقطع روابط الأخوة والمحبة والقربى

إن من أعظم آثار الشرك بالله – تعالى – أنه يزيل روابط الإخاء والمحبة، ويقطع أواصر[١] القرابة والمودة، ويجتث[٢] جميع صور الولاء والخُلّة بين المشركين والمسلمين، فلا يُوالي المشرك، ولا يحب ولا يجالس، ولا يساكن، ولا يُنكح، ولا يرث ولا يورَث، بل ولا يُتَشَبّه به، كل ذلك تعظيماً لجرم الشرك وتنفيراً من موافقة المشركين، وتكريماً للمسلم، وتمييزاً له على الكفرة الظالمين.

ومن الآيات الواردة في النهي عن موالاة المشركين ومحبتهم قوله –تعالى–:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ففي هذه الآية الكريمة يبيّن الله – تعالى – لرسوله ﷺ أنه لا ينبغي لمن آمن بالله واليوم الآخر أن يُوادَّ ويوالي ويحب من حادَّ الله ورسوله وشاقَّه وخالف

---

(١) الأواصر جمع آصرة، وهي: ما عطفك على غيرك من رحم أو قرابة أو مصاهرة، المعجم الوسيط ١٩/١.

(٢) يجتث: يقتلع، انظر مختار الصحاح ص(٤٠).

أمره، وعلى رأس هؤلاء أهل الإشراك، حتى ولو كان هذا المُحادُّ أقربَ النـــاس إليك، فمن التزم بهذه العقيدة واتصف بها فهو المؤمن حقاً الذي غرس الله الإيمان في قلبه، وقواه بوحيه، ونوَّره بهداه، وهو الذي له الحياة الطيبة في هذه الـــدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، وهو الذي يحلُّ الله – تعالى – عليه رضوانه، فإنه مـــن جند الله وأوليائه المفلحين [1].

"فهذه الآية تدعو إلى المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشـــيطان، والانحياز النهائي للصف المتميز، والتجرد من كل عائق وكل جاذب، والارتباط في العروة الواحدة بالحبل الواحد، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما يجمع إنسان في قلب واحد ودَّيْن: ودّاً لله ورسوله ووداً لأعداء الله ورســـوله، فإما إيمان، أولا إيمان، أما هما معاً فلا يجتمعان، فروابط الدم والقرابة تنقطع عند حد الإيمان، إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللـــوائين: لواء الله ولواء الشيطان.

إن المؤمن الحق ينبغي أن يتجرد من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الـــدين والعقيدة، فلا نسب ولا صهر ولا أهل ولا قرابة ولا وطـــن ولا جـــنس، ولا عصبية ولا قومية، إنما هي العقيدة والعقيدة وحدها، فمن انحاز إلى حـــزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله، ومـــن انحاز إلى حزب الشيطان ووقف تحت راية الباطل فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة، لا من أرض، ولا من جنس، ولا من وطن، ولا مـــن لـــون، ولا مـــن

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٦/١٢، وتفسير ابن كثير ٣٥٣/٤، وتفسير السعدي ٣٢٢/٦.

عشيرة، ولا من نسب، ولا من صهر"[١].

ومن الآيات الواردة في قطع المودة بين المسلمين والمشركين قوله -تعالى-: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

ففي هاتين الآيتين يخبر الله – تعالى – عن رسوله نوح – عليه السلام – أنه سأل ربه مستعلماً عن حال ابنه بعدما أغرق الله قومه الكفرة، والذي حمله – عليه السلام – على هذا السؤال – مع أن ابنه رفض الإيمان به، وأبى أن يركب معه في السفينة التي نجّى الله فيها المؤمنين – هو وَعْد الله – تعالى – له بإنجاء أهله، حيث قال – تعالى -: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ [هود: ٤٠]، فحملته الشفقة – عليه السلام – على الظن بأن ابنه داخل في عموم وعد الله – تعالى –، مع تفويضه الأمر لحكمة الله البالغة، فبيّن الله – سبحانه وتعالى – أن ابنه هذا ليس من أهله الذين وعد بإنجائهم، لأن الله – تعالى – وعد بإنجاء من آمن من أهله فقط، فهذا الدعاء الذي دعوت به يا نوح لنجاة مشرك عملٌ غيرُ صالحٍ [٢]، فلا تسألن عما لا تعلم عاقبته ومآله، وما طويته عنك من أسباب أفعالي، إني أعظك أن تتصف

---

(١) في ظلال القرآن ٣٥١٤/٦ بتصرف يسير.

(٢) وفي قراءة: (إنه عمِلَ غيرَ صالح). النشر في القراءات العشر ٢٨٩/٢.

بصفات الجاهلين [١].

فهاتان الآيتان دليل واضح وبرهان ساطع على أن الشرك يلغي جميع الروابط ويقضي على كل الوشائج [٢]، فهذا ابن أول الرسل - عليهم السلام - لما أشرك بالله غرق مع المُغرقين، وهلك مع الهالكين، ولم يغن عنه نسبه وقرابته من عذاب الله شيئاً، فقد حال بينه وبين أبيه الشرك فكان من المغرقين.

ومن الآيات الورادة في مقاطعة المشركين ولو كانوا أقرب الأقربين قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

ففي هاتين الآيتين ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكفرة المشركين أولياء يحبونهم ويصادقونهم ويساكنونهم مادام أنهم مصرون على الشرك، مؤثرون له على الإسلام، حتى ولو كان هؤلاء المشركون آباءً أو أبناءً، ثم يحكم الله - سبحانه - على من فعل ذلك فوالى المشركين وأحبهم، وأقام معهم بالظلم ؛

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٢/٧، وتفسير ابن كثير ٤٦٣/٢، وتفسير السعدي ٤٢٧/٦.

(٢) الوشائج: جمع وشيجة، وهي الرحم المشتبكة المتصلة. لسان العرب ٤٨٤١/٨.

لأنهم تجرؤ على معصية الله وتعدي حدوده.

"ولا يكتفي السياق بتقرير المبدأ، بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى"[(١)]، حيث يتوعد - سبحانه - من قدم محبة الآباء والأبناء والأخوان والأزواج والعشيرة والأموال التي تعب في تحصيلها، والتجارة التي يخشى رخصها ونقصها، والمساكن التي يألفها ويستحسنها ويبغض فراقها، على محبته، ومحبة رسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة إلى دار دينه يتوعد الله من يفعل ذلك بالعذاب الأليم الذي ينتظره، فإنه من الفاسقين الخارجين عن طاعة رب العالمين[(٢)].

ومن الآيات الواردة في هذا الباب أيضاً قوله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ١-٣].

---

(١) في ظلال القرآن ١٦١٥/٣.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٣٣٩/٦، وتفسير ابن كثير ٥٣٦/٢، وتفسير السعدي ٢١٣/٣.

وكان سبب نزول هذه الآيات قصة حاطب بن أبي بَلْتَعَة[١] حينما كتب إلى أهل مكة يخبرهم بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم، وكان النبي ﷺ قد أخفى ذلك عليهم، كما في الصحيحين عن علي – رضي الله عنه – قال: ((بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ [٢]، فإن بها ظعينة[٣] معها كتاب فخذوا منها، قال فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتُلقينَّ الثياب، قال: فأخرجته من عِقاصها [٤]، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله، لا تعجل عليّ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، يقول: كنت حليفاً، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً[٥] يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب

---

(١) هو حاطب بن أبي بلتَعَة بن عمرو اللخمي، أسلم قديماً وشهد بدراً وغيرها، مات عام ٣٠هـ، انظر الإصابة ٣١٤/١، وتهذيب التهذيب ١٦٨/٢.

(٢) خاخ: موضع بين مكة والمدينة، النهاية لابن الأثير ٨٦/٢، وانظر معجم البلدان ٣٣٥/٣.

(٣) الظَّعينة: في الأصل وصف للمرأة في هودجها، ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت في بيتها، المصباح المنير ص(١٩٩).

(٤) عِقاصِها: ضفائرها، جمع عقيصة، وهو الشعر المضفور، النهاية ٢٧٥/٣.

(٥) اليد: النعمة والإحسان، المصباح المنير ص(٣٥٠).

عنق هذا المنافق، فقال: إنه شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (١).

ففي هذه الآيات ينهى الله – تعالى – عباده المؤمنين أن يتخذوا أعداء الله وأعداءهم من المشركين أولياء وأنصاراً وأصدقاء يسارعون في مودتهم ويبذلون لهم أسبابها، لا سيما وأنهم كفروا بالله – تعالى – وبرسوله، وأخرجوا الرسول ﷺ والمؤمنين من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أنهم آمنوا بالله رب العالمين، فإنه لا يليق بالمؤمنين أن يوالوا أعداء الله الكفرة المشركين إن كانوا خرجوا من ديارهم ابتغاء مرضاة الله – تعالى – وجهاداً في سبيله، وكيف يسرون بالمودة للمشركين ويخفونها مع علمهم بأن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، إن من يصنع هذا الصنيع قد ضل عن الصراط الموصل إلى جنات النعيم.

ثم يبين – سبحانه – في الآية الثانية شدة عدواة المشركين للمؤمنين، وأنهم متى تمكنوا منهم وقدروا عليهم فإنهم لن يتوانوا عن التنكيل بهم وإيذائهم بالقول والفعل، بالسب والشتم، والقتل والضرب، مع هذا فهم حريصون على إضلال المؤمنين وإخراجهم من دينهم.

وفي الآية الأخيرة يبين – سبحانه – أن الحرص على القرابة والأرحام والأموال والمحافظة عليها لا تُسوّغ نصرة المشركين واتخاذهم أولياء، فإن الأولاد

(١) صحيح البخاري ٥١٩/٧ ح(٤٢٧٤)، وصحيح مسلم ١٩٤١/٤ ح(٢٤٩٤).

والأرحام لا تنفع عند الله يوم القيامة، ولا تنجي من عذابه، ذلك اليوم الـــذي يفصل فيه العليم البصير بين العباد، ففريق في الجنة وفريق في السعير [١].

وكما نهى الله – تعالى – عن موالاة المشركين ومناصرتهم ومساكنتهم ومحبتهم ؛ نهى عن مناكحتهم، فلا يحل للمسلم أن ينكح مشركة، ولا يحل للمسلمة أن تنكح المشرك، كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقال – تعالى –: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ففي هاتين الآيتين ينهى الله – تعالى – المسلمين عن مناكحة المشركين [٢]، والحكمة في تحريم مناكحة المشركين بيّنها الله – تعـــالى – بقولـــه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أجل إن المشركين يدعون إلى النار بـــأقوالهم، وأفعـــالهم،

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٢/٥٥، وتفسير ابن كثير ٤/٣٧٠، وتفسير السعدي ٧/٣٤٨.

(٢) ويستثنى من عموم المشركات نساء أهل الكتاب، فإنه يجوز نكاحهن، بشروط معينة، لقولـــه – تعـــالى –: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة: ٥].

وأخلاقهم، فمخالطتهم والاتباط بهم ومعاشرتهم فيها خطر عظيم على مَن ناكحهم وعلى ذريته من بعده [١].

وكما نهى الله – تعالى – عن مناكحة المشركين نهى أيضاً عن أكل ذبائحهم، كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "يعني بقوله – جلّ ثناؤه –: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾: ولا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات فلم تذبحوه أنتم، أو يذبحه مُوحّد يدين لله بشرائع شرعها له في كتاب منزل [٢]، فإنه محرم عليكم، ولا ما أهل به لغير الله مما ذبحه المشركون لأوثانهم، فإن ذلك"فسق"يعني: معصية كفر"[٣].

وذبيحة المشرك في حكم الميتة حتى وإن ذكر اسم الله عليها، لأن التسمية عبادة، والشرك مبطل للعبادة، فلا أثر للتسمية إذن [٤]، وقد حرم الله – تعالى –

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢٧٤/١، وتفسير القرطبي ٥٤/٣، وتفسير السعدي ٢٧٤/١.

(٢) قوله: "أو يذبحه موحد يدين الله بشرائع شرعها له في كتاب منزل"يريد بهذا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإن ذبائحهم حلال لقوله – تعالى –: ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦].

(٣) تفسير ابن جرير ٣٢٥/٥.

(٤) انظر إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله للشيخ عبدالعزيز بن باز ص(٣٢).

أكل الميتة بقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: ٣]، وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال - تعالى -: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

قال ابن قدامة: "وسائر الكفار غير أهل الكتاب، كمن عَبَدَ ما استحسن من الأصنام والأحجار والشجر والحيوان، فلا خلاف بين أهل العلم في تحريم نسائهم وذبائحهم"(١).

ولقد حرص الإسلام على قطع جميع الروابط مع المشركين، والتميز الكامل عنهم، وسد كل ذريعة يمكن أن تكون سبباً في مودتهم وموالاتهم ومحبتهم حتى إنه نهى عن التشبه بهم، لأن التشبه بالمشركين في الظاهر يورث التشبه بهم في العقيدة، أو مودتهم، أو مسايرتهم وموافقتهم على أهوائهم وأخلاقهم (٢)، وقد وردت آيات كثيرة في النهي عن التشبه بالمشركين واتباع أهوائهم، منها قوله - تعالى -: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عند هذه الآية: "جعل الله محمداً ﷺ على

(١) المغني لابن قدامة ٩/٥٤٨.

(٢) انظر الولاء والبراء في الإسلام للدكتور محمد بن سعيد القحطاني ص(٣٢١).

شريعة من الأمر شرعها له وأمره باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وقد دخل في الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته، و"أهواءهم"هي ما يهوونه وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذي هو من موجبات دينهم الباطل وتوابع ذلك، فموافقتهم فيه اتباع لما يهوونه، ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين لهم في بعض الأمور ويسرون بذلك.

ولو فرض أن الفعل ليس من اتباع أهوائهم: فلا ريب أن مخالفتهم في ذلك أحسم لمادة متابعتهم في أهوائهم وأعون على حصول مرضاة الله في تركها"[(١)].

ومما ينبغي التنبيه عليه أنه ظهرت في هذا العصر دعوة غريبة وفكرة مريبة تناقض هذه العقيدة الأصيلة والملّة الحنيفة، وهي الدعوة إلى ما يسمى بالتعايش السلمي، والإخوة الإنسانية، وزمالة الأديان، ونبذ الفرقة والاختلاف والعداوة والبغضاء بين المسلمين وغيرهم من الكفرة والمشركين، وإقامة الروابط وبناء العلائق معهم [(٢)].

ولا شك أن هذه دعوة باطلة، وفكرة خاطئة، فإن الشرك والإيمان لا يجتمعان أبداً كما قال - تعالى -: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤].

"فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم، وهو الكفر بهم والإيمان بالله،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص(١٤).

(٢) انظر الولاء والبراء في الإسلام ص(٣٤٦)، والجهاد وأهميته في نشر الدعوة الإسلامية للدكتور على العلياني ص(٤٤٩).

وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده، وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان، وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل، وفي فرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين"[1].

بل إن المشركين أنفسهم وإن أظهروا الود للمسلمين والرغبة في مد الجسور معهم، فهم حريصون كل الحرص على إخراجهم من دينهم وإدخالهم في ملتهم، كما قال - تعالى -: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ ﴾[النساء: ٨٩]، وقال - تعالى -: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ٢].

أما الإحسان إلى المشركين غير المحاربين وبرُّهم وصلتهم، من غير محبة لهم ومودة قلبية فهي جائزة، لاسيما إذا رُجي من ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين، كما قال - تعالى -: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[الممتحنة: ٨].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٥٤٢.

المبحث الرابع :الذلة والخذلان والتخبط في الدنيا

إن من آثار الشرك وعواقبه الوخيمة في الدنيا: الذلةَ والخذلان، والحيرة، والشقاء، والتخبط، والعمى، وذلك لأن المشرك ميت القلب، خبيث النفس، حرج الصدر، قد تولاه الشيطان، وأعرض عنه الرحمن، والآيات في هذا المعنى كثيرة، فمنها قوله – تعالى –: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

ففي هذه الآية يضرب الله – تعالى – مثلاً للمشرك في ضلاله وهلاكه حيث يشبهه بمن سقط من السماء فتلقته الطير في الهواء ومزقته قبل أن يصل إلى الأرض، أو عصفت به الريح فألقته في مكان بعيد مهلك [(١)].

يقول ابن القيم عند هذه الآية: "فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره.

ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيهاً مركباً [(٢)]، ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاة، فصور

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٤٥/٩، وتفسير ابن كثير ٢٢٩/٣، وتفسير السعدي ٢٩٢/٥، والتفسير المنير ٢٢٩/١٧.

(٢) التشبيه المركب: هو ما كان التشبيه فيه تشبيهاً لأمر بأمرين أو بأكثر، أو تشبيهاً لأمرين بأمرين أو بأكثر، انظر كتاب الطراز ليحيى بن حمزة العلوي اليمني ٢٨٦/١.

حاله بصورة حال من خرَّ من السماء، فاختطفته الطير في الهواء، فتمزق مِزَقاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا ينظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرَّق [(١)]، فيُقابل كل واحد من أجزاء الممثَّل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلى الأرض وإليها يصعد، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد، والآلام المتراكمة، والطير الذي تخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله – سبحانه وتعالى – وتؤزه أزاً وتزعجه وتُقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحيق هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء"[(٢)].

ويقول صاحب الظلال: "ثم يرسم النص مشهداً عنيفاً يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد، فيهوي إلى دَرَك الشرك، فإذا هو ضائع ذاهب بدداً كأن لم يكن من قبل أبداً....

إنه مشهد الهَويِّ من شاهق ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وفي مثل لمح البصر يتمزق ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أو تقذف به الريح بعيداً عن الأنظار في

---

(١) التشبيه المفرّق أو المفرد: هو ما كان التشبيه فيه مقصوراً على تشبيه صورة بصورة من غير زيادة، أو صورة بمعنى، انظر الطراز ١/٢٨٦.

(٢) إعلام الموقعين ١/١٨٠.

هُوَّة ليس لها قرارا.

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ"بالفاء"وفي المنظر بسرعة الاختفاء على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير.

وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق[١] إلى حيث الفناء والانطواء، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد، ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب[٢] إليه ؛ فتخطفه الأهواء تخطُّف الجوارح [٣]، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح، وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه"[٤].

والشرك مصدر للمخاوف والأوهام كما أن التوحيد مصدر للأمن والطمأنينة[٥]، فالمشرك مهما أوتي من قوة وسلطان، واتخذ من الجند والأعوان فإنه لا يزال في خوف ووجل وانزعاج، كما قال - تعالى -: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[آل عمران: ١٥١].

ففي هذه الآية يبشر الله - تعالى - عباده المؤمنين بأنه سيلقى في قلوب

---

(١) السامق: المرتفع، انظر المعجم الوسيط ١/٤٥٠.

(٢) بثوب: يرجع، مختار الصحاح ص(٣٨).

(٣) الجوارح من الطير: ذوات الصيد، مختار الصحاح ص(٤٢).

(٤) في ظلال القرآن ٤/٢٤٢١.

(٥) انظر حقيقة التوحيد للدكتور يوسف القرضاوي ص(٩٠).

أعدائهم المشركين الخوف والجزع والهلع[١] منهم، والذلّة لهم بسبب شركهم بالله، وعبادتهم للأصنام بغير حجة ولا برهان، هذا جزاؤهم في الدنيا، وأما في الآخرة فلهم العذاب الأليم في النار وبئس مقام الظالمين [٢].

"فمن ثم كان المشرك مرعوباً من المؤمنين لا يعتمد على ركن ويثق وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق"[٣].

والشرك سبب للمذمّة من الله – تعالى – ومن الناس، والخذلان ممن أُشرك به، كما قال – تعالى –: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء: ٢٢].

ففي هذه الآية ينهى الله – تعالى – نبيه ﷺ [وأمته داخلون في هذا الخطاب] عن الشرك، ثم يبين عاقبة ذلك وهي المذمّة والخذلان ؛ المذمة على صرف العبادة لمن لا تصلح له، والخذلان ممن أُشرك به فإنه لا ناصر إلا الله وحده، فإذا أعرض العبد عنه – سبحانه – وكله إلى من جعله شريكاً له وبئس المولى والنصير[٤].

"واللفظ ﴿فَتَقْعُدَ﴾ يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد"[٥].

---

(١) الهلع: أفحش الجزع، مختار الصحاح ص(٢٩٠).

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٤٦٨/٣، وتفسير ابن كثير ٢٤٠/١، وتفسير السعدي ٤٣٥/١.

(٣) تفسير السعدي ٤٣٥/١.

(٤) انظر تفسير ابن جرير ٥٧/٨، وتفسير ابن كثير ٣٧/٣، وتفسير السعدي ٢٦٩/٤.

(٥) في ظلال القرآن ٢٢٢٠/٤.

يقول السعدي عند هذه الآية: فالله وملائكته ورسله قد نهوا عن الشـــرك وذموا من عَمِلَه أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه أشنعَ الخلق وصفاً، وأقبحهم نعتاً.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه، فمـــن تعلق بغيره معه فهو مخذول، قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً إلا بإذن الله"[١].

والمشرك دائماً ضيّق الصدر، مظلم القلب، كما قال – تعالى –: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ففي هذه الآية يبين – سبحانه – لعباده علامة سعادة العبـــد وهدايتـــه، وعلامة شقاوته وضلاله ؛ فإن السعيد في الدنيا والآخر هو من شرح الله صدره للإسلام فاتسع له وانفسح واستنار بنور الإيمان، فاطمأنت نفسه وحَيِيَ قلبه.

وأما الشقي فهو من أضله الله فجعل صدره ضيقاً شديد الضيق، فلا تصل إليه المواعظ، ولا يدخله نور الإيمان بسبب كفره وشركه بالله – تعالى – مـــا لم يترل به سلطاناً، مثله كمثل الذي يكلِّف نفسه صعود السماء فـــلا يســـتطيع، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان وأصرَّ على الشـــرك والطغيان [٢].

---

(١) تفسير السعدي ٤/٢٦٩.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٥/٣٣٥، وتفسير ابن كثير ٢/١٨٠، وتفسير السعدي ٢/٤٧١.

يقول ابن جرير عند قوله – تعالى –: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ : "ومن أراد الله إضلاله عن سبيل الهدى لشغله بكفره، وصده عن سبيله يجعل صدره بخذلانه وغلبة الكفر عليه حرجاً، والحَرَج أشد الضيق [١]، وهو الذي لا ينفذه[٢] من شدة ضيقه، وهو ههنا الصدر الذي لا تصل إليه الموعظة، ولا يدخله نور الإيمان لِرَيْن[٣] الشرك عليه"[٤].

والشرك سبب للمعيشة الضيقة، والحياة البئيسة، كما قال – تعالى –: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

ففي هذه الآية يخبر – سبحانه وتعالى – بأن من أعرض عن هداه الذي أودعه كتابه، وأنزله على رسوله، فتولى عنه و لم يقبله ويستجب له، ويتعظ بما فيه فإن له معيشة ضيقة شديدة وحياة شقية بئيسة في الدنيا والآخرة [٥]، فهو في الدنيا مهموم مغموم، وفي القبر مضيَّق عليه ومفتون، ويوم القيامة معذب وملعون [٦].

---

(١) انظر المعجم الوسيط ١/١٦٤.

(٢) أي لا يدخل إليه شيء، انظر مختار الصحاح ص(٢٨٠).

(٣) الرَّيْن: الطبع والتغطية، انظر مختار الصحاح ص(١١٢).

(٤) تفسير ابن جرير ٥/٣٣٧.

(٥) وقد اختلف في زمن هذه المعيشة الضيقة، فقيل: هي في الدنيا، وقيل: في القبر، وقيل: في الآخرة، وقيل: هي عامة في الأحوال الثلاث، والله أعلم. انظر تفسير ابن جرير ٨/٤٧٠، وتفسير السعدي ٥/١٩٨، والجواب الكافي ص(١٧٩).

(٦) انظر تفسير ابن جرير ٨/٤٦٩، وتفسير ابن كثير ٣/١٧٧، وتفسير السعدي ٥/١٩٨.

قال ابن القيم عند هذه الآية: "فإنه – سبحانه – رتب المعيشة الضَّنْك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم ففي قلبه من الفواحش والذل والحسرات التي تقطع القلوب، والأماني الباطلة، والعذاب الحاضر ما فيه..."(١).

ولا شك أن المشرك من أشد الناس إعراضاً عن ذكر الله وأعظمهم نسياناً له.

والشرك سبب لزوال النعم وحلول البلايا والمحن، وقد ذكر الله – تعالى – في القرآن الكريم أمثله كثيرة لأمم سالفة حلت بها النقم وزالت عنها النعم، بسبب شركهم بالله –تعالى–، من ذلك صاحب الجنتين الذي آتاه الله –تعالى– جنتين فيهما أنواع الزروع والثمار، تجري من خلالها الأنهار، فاغتر بما آتاه الله من الأموال والثمار، وأشرك بالله – تعالى –، و لم يقبل موعظة صاحبه المؤمن، فعاجله الله بالعقوبة حيث أتلف – سبحانه – جميع ثماره وزروعه، ولذلك ندم على ما فعله واشتد أسفه على ذهاب أمواله وأصبح يقلب كفيه حسرةً على ما أنفق في جنتيه من الأموال، وتمنى أنه لم يشرك بالله – تعالى – أحداً، حيث لم ينفعه ما كان يفتخر به من الأموال والأعوان، و لم تمنعه من عذاب الله، كما قال – تعالى –: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٢-٤٣] (٢).

---

(١) الجواب الكافي ص(١٧٩).

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٨٩/٣، وتفسير السعدي ٤١/٥.

وهذه مملكة سبأ العظيمة التي كانت في رغد من العيش وسعة من الرزق، قد أدرّ الله عليهم النعم ودفع عنهم النقم، فأعرضوا عن التوحيد وعبدوا الشمس من دون الله [١]، فعاقبهم الله على شركهم حيث أرسل عليهم السيل العظيم الذي دمّر بلادهم وأغرق زروعهم، وأتلف ثمارهم، فأصبحوا في الأرض أشتاتاً متفرقين بعد ما كانوا جيراناً مجتمعين، كما قال – تعالى –: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

قال ابن كثير: "فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الآراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل"[٢].

ولما طغى فرعون وتكبر ورد دعوة موسى – عليه السلام – وأصر هو

---

(١) كما قال الهدد لسليمان: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٢- ٢٤].

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٥٤٠.

وقومه على الشرك والطغيان أنزل الله – تعالى – عليهم بأسه، وأحل بهم عقوبته، وسلب منهم نعمته وأخرجهم من ديارهم التي كانت مملوءة بالبساتين والأنهار والأشجار والثمار، والمساكن الأنيقة، والأماكن الحسنة الفسيحة، والعيشة الهنيّة الرغيدة، وأورثها بني إسرائيل ؛ كل ذلك في صبيحة واحدة [1]، كما قال – تعالى –: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

هذا والناظر في حال المشركين اليوم سواء كانوا من المشركين الأصليِّين أو ممن وقعوا في أوحال الشرك وهم ينتسبون إلى الإسلام يجد أنهم في حالة لا يحسدون عليها من الشقاء والتعاسة، وضيق الصدور، وفساد العقول، والخوف الشديد من المستقبل المجهول، قد استولى عليهم الشيطان، وتراكمت عليهم الهموم والأحزان، وفرقتهم الظنون والأوهام، ولذلك يتجه الكثير منهم إلى المصحات النفسية رجاء أن يجدوا فيها شفاءً لما هم فيه، ويعمد آخرون إلى التخلص من هذه الحياة الشقية التي يعيشونها وذلك بقتل أنفسهم، نسأل الله – تعالى – العافية.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٥٢/٤، وتفسير السعدي ١١/٧.

الفصل الثاني

آثار الشرك الأخروية في ضوء القرآن الكريم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الشرك محبط لجميع الأعمال.

المبحث الثاني: تحريم الجنة على المشرك وخلوده في النار.

المبحث الأول: الشرك محبط لجميع الأعمال [١]

إن من أعظم آثار الشرك، وأكبر مفاسده أنه يحبط جميع الأعمال الصالحة ويفسدها، فالمشرك مهما عمل من عمل فإنه لا قيمة لعمله ولا وزن في الدار الآخرة، وإنما يعجل له أجره في الحياة الدنيا، حتى إذا صار إلى الآخرة لم يكن له عمل يجزى به.

وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على بطلان أعمال المشركين وذهابها، فمن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ففي هذه الآية يخبر - سبحانه وتعالى - أن الهدى الذي اهتدى به من ذكر من الأنبياء في الآيات التي تقدمتها[٢] إنما حصل لهم بتوفيقه ولطفه، فهو الذي يوفق من شاء من عباده للتوحيد والإخلاص وترك الشرك والأوثان، ثم يبيّن - سبحانه - أنه لو فُرض أن هؤلاء الرسل المذكورين - صلوات الله وسلامه عليهم - أشركوا بالله - سبحانه - لأبطل أعمالهم، لأنه لا يقبل من مشرك عملاً، وفي هذا تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه، فإنه إذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار من الرسل لو أشركوا لحبطت أعمالهم فكيف بغيرهم، وهذا

---

(١) والمقصود هنا الشرك الأكبر، أما الشرك الأصغر فإنه لا يحبط إلا العمل الذي قارنه كما تقدم، انظر ص(٢٣).

(٢) في قوله - تعالى -: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ ﴾ ..... الآيات، [الأنعام: ٨٣].

شرط والشرط لا يقتضي جواز الوقوع كقوله - تعالى - ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١][(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند هذه الآية: "والأنبياء معصومون من الشرك، ولكن المقصود بيان أن الشرك لو صدر من أفضل الخلق لأحبط عمله، فكيف بغيره؟ وكذلك قوله لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥] مع أن الشرك منه ممتنع، لكن بيّن بذلك أنه إذا قدِّر وجوده كان مستلزما لحبوط عمل المشرك وخسرانه كائناً من كان، وخوطب بذلك أفضل الخلق لبيان عظم هذا الذنب لا لغض قدر المخاطب"[(٢)].

ومثل هذه الآية قوله - تعالى - في سورة الزمر: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

ففي هذه الآية يخبر - سبحانه وتعالى - خبراً مؤكداً أنه أوحى إلى نبيه محمد ﷺ وإلى جميع الأنبياء قبله أن الشرك محبط لجميع الأعمال، موجب للهلاك والخسران [(٣)]، حتى ولو حصل من رسل الله - عليهم الصلاة والسلام -،"وهذا على سبيل الفرض، والمراد تهييج الرسل، وإقناط الكفرة، وتنبيه الأمة، وأفرد

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٥٩/٥، وتفسير ابن كثير ١٦٠/٢، وتفسير السعدي ٤٣٠/٢.

(٢) الرد على البكري ص(٢٤١).

(٣) انظر تفسير ابن جرير ٢٣/١١، وتفسير السعدي ٤٩١/٦.

الخطاب باعتبار كل واحد، واللام الأولى موطئة للقسم، والأخيرتان للجواب، وعطف الخسران على إحباط الأعمال من عطف المسبب على السبب"[١].

وقد أخبر الله – سبحانه وتعالى – أن عمارة المساجد والتي هي من أفضل الأعمال لا تنبغي للمشركين ولا تليق بهم، لأن المشرك لا تقبل منه قُربة، ولا تنفعه طاعة، بل أعماله كلها باطلة مردودة، وفي النار هو من الخالدين [٢]، كما قال – تعالى –: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [التوبة: ١٧].

وحينما يجمع الله – تعالى – الأولين والآخرين على صعيد واحد يوم القيامة ليقضي بينهم بحكمه، ويجازيهم بأعمالهم، يؤُمّل المشركون في أعمال عملوها في الدنيا ويرجون ثوابها في ذلك اليوم العصيب، ولكنها تذهب وتبطل حينما تعرض على الحكم العدل – جلَّ جلاله – فلا ينالون بها أجراً، ولا يجدون لها نفعاً، وذلك لأنها لم تصدر من مؤمن موحد، ولم يُبتغ بها وجه الله والدار الآخرة[٣]، كما قال – تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

---

(١) التفسير المنير ٤٦/٢٤، وانظر تفسير أبي السعود ٢٦٢/٧.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٣٣٤/٦، وتفسير ابن كثير ٣٥٣/٢، وتفسير السعدي ٢٠٩/٣.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ٣٨٠/٩، وتفسير ابن كثير ٣٢٦/٣، وتفسير القرطبي ١٦/٣، وتفسير السعدي ٤٧٢/٥.

وقد دلت السنة أيضاً على بطلان عمل المشرك وعدم انتفاعه به في الآخرة، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله – تبارك وتعالى –: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه))، [(١)].

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: ((قلت: يا رسول الله ابن جدعان[(٢)] كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفرلي خطيئتي يوم الدين)) [(٣)].

قال القاضي عياض[(٤)]: "وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم، ولا تخفيف عذاب، لكن بعضهم أشد عذاباً من بعض بحسب جرائمهم"[(٥)].

ومن رحمة الله – تعالى – وعدله أن المشرك إذا عمل الخير ابتغاء ثواب الله وطلباً لرضاه فإن الله لا يبخسه حقه، ولا يضيع أجره، بل يجازيه على ذلك، ولكن في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فليس له إلا النار إن مات على شركه،

---

(١) صحيح مسلم ٢٢٨٩/٤ ح(٢٩٨٥).

(٢) هو عبدالله بن جدعان بن عمرو التيمي القرشي، كان من الكرماء الأجواد في الجاهلية، وكانت له جفنة عظيمة يطعم الناس منها كل ليلة، انظر البداية والنهاية ٢١٧/٢، والأعلام ٧٦/٤.

(٣) أخرجه مسلم ١٩٦/١ ح(٢١٤).

(٤) هو الإمام العلامة القاضي أبوالفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي المالكي، ولي قضاء سبتة، ثم غرناطة، من تصانيفه: شرح صحيح مسلم، والشفاء في حقوق المصطفى، توفي عام ٥٤٤هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٥١٢/٢٠، والأعلام ٩٩/٥.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ٨٧/٣.

وذلك لما روى أنس – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى[١] إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى لها)) [٢].

قال النووي: "أجمع العلماء على أن الكافر الذي مات على كفره لا ثواب له في الآخرة، ولا يجازى فيها بشيء من عمله في الدنيا متقرباً إلى الله –تعالى–، وصرّح في هذا الحديث بأنه يطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات، أي: بما فعله متقرباً به إلى الله – تعالى – مما لا يفتقر صحته إلى النية كصلة الرحم، والصدقة، والعتق، والضيافة، وتسهيل الخيرات ونحوها، وأما المؤمن فيدَّخر له حسناته وثواب أعماله إلى الآخرة، ويجزى بها مع ذلك أيضاً في الدنيا، ولا مانع من جزائه بها في الدنيا والآخرة، وقد ورد الشرع به فيجب اعتقاده"[٣].

---

(١) أفضى: صار، انظر المعجم الوسيط ١٩٣/٢.

(٢) صحيح مسلم ٢١٦٢/٤ ح(٢٨٠٨).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥٠/١٧.

المبحث الثاني: تحريم الجنة على المشرك وخلوده في النار

إن أعظم أثر يجرُّه الشرك على صاحبه، وأكبر خطر يتهدده، وأسوأ مصير ينتظره إن مات على شركه هو أنه محروم من دخول الجنة، محكوم عليه بالخلود الأبدي في نار جهنم [١].

وقد ورد في القرآن آيات كثيرة تدل على أن المشرك ممنوع من دخول الجنة، محكوم عليه بالنار إن لم يتب من شركه، ويمت على التوحيد والإسلام، فمنها قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ففي هذه الآية الكريمة يبيّن - سبحانه - حكم المشرك ومآله الذي يصير إليه في الآخرة، وهو الحرمان من دخول الجنة والخلود في نار جهنم وبئس القرار، وليس له في ذلك اليوم من أعوان ينقذونه من عذاب الله أو أنصار، وذلك لأنه ظلم نفسه وسوى المخلوق بالله الخالق القهار [٢].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

---

(١) والمقصود هنا: الشرك الأكبر، أما الشرك الأصغر فإنه لا يوجب الخلود في النار، ولا يمنع من دخول الجنة كما تقدم، انظر ص (٢٠).

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٦٥٢/٤، وتفسير ابن كثير ٨٤/٢، وتفسير السعدي ٢٤/٢.

وفي هذه الآية ينهى الله – سبحانه – نبيه ﷺ عن الشرك مبيناً عاقبة ذلك في الآخرة، وهي دخول نار جهنم – أعاذنا الله منها – مع حصول اللائمة واللعنة من الله، وملائكته، والنفس، والناس أجمعين [١].

وقال – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٦].

ففي هذه الآية يخبر الله – تعالى – عن مآل الكفار من المشركين وأهل الكتاب، وأنهم في نار جهنم ماكثون لا يخرجون منها ولا يزولون عنها، ولا يموتون فيها، فهم شرُّ البريَّة [٢]، وأشقى البشرية [٣].

وقال – تعالى –: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وفي هذه الآية ينهى الله – سبحانه – رسوله ﷺ وأمته له أسوة، عن الإشراك بالله، متوعداً من فعل ذلك بالعذاب الأليم الدائم [٤].

ولما لم يستطع رسول الله ﷺ هداية عمه أبي طالب إلى الإسلام، عزم على الدعاء له مكافأة له على ما قدمه له من رعاية وحماية، فنهاه الله عن ذلك، مبيناً أن الاستغفار للمشركين الذين ماتوا على شركهم أمر لا يليق بالنبي والمؤمنين

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٨٢/٨، وتفسير ابن كثير ٤٤/٣، وتفسير السعدي ٢٧٩/٤.

(٢) البريَّة: هم من برأه الله، أي خلقه، انظر القاموس المحيط ٦/١، وتفسير ابن جرير ٦٥٧/١٢.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ٦٥٧/١٢، وتفسير ابن كثير ٥٧٥/٤، وتفسير السعدي ٦٥٨/٧.

(٤) انظر تفسير ابن جرير ٨٣/٨، وتفسير ابن كثير ٣٦٢/٣، وتفسير السعدي ٥٥١/٥.

به، حتى ولو كان هؤلاء المشركون ذوي قربى، وذلك بعدما تبّن لهم أنهم من أصحاب النار، وأنها قد وجبت لهم واستحقوها بسبب شركهم، فلا ينفعهم حينئذٍ استغفار المستغفرين ولا شفاعة الشافعين [١]، كما قال – تعالى –: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

وعن سعيد بن المسيب[٢] عن أبيه[٣] قال: ((لما حضرت أباطالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أباجهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: أي عم قل لا إله إلا الله كلمةً أحاج لك بها عند الله، فقال أبوجهل وعبدالله بن أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبوطالب آخر ما كلمهم: على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: قال رسول الله ﷺ: لأستغفرن لك مالم أنه عنك، فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾، وأنزل في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٤٨٧/٦، وتفسير ابن كثير ٤١٠/٢، وتفسير السعدي ٣٠٥/٣.

(٢) هو أبومحمد سعيد بن المسيب بن حَزْن المخزومي القرشي، أحد العلماء الأثبات الفقهاء الكبار، صاحب زهد وعبادة، توفي عام ٩٣هـ، انظر حلية الأولياء ١٦١/٢، وتقريب التهذيب ص(٢٤١).

(٣) هو المُسيَّب بن حَزْن بن أبي وهب المخزومي، له ولأبيه صحبة، عاش إلى خلافة عثمان، انظر التقريب ص(٥٣٢)، والإصابة ٩٩/٦.

﴿ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] (١).

وقد أخبر الله – سبحانه – أن المشركين ومعبوداتهم من الأوثان والأصنام وقود جهنم الذي توقد به يوم القيامة خالدون فيها مخلدون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها، كما قال – تعالى –: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩] (٢).

والشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة منه (٣)، فإذا مات المشرك على شركه فإنه ليس أهلاً لمغفرة الله ورحمته التي يتفضل بها – سبحانه – على عباده الموحدين، كما قال – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال – تعالى –: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦].

---

(١) صحيح البخاري ٥٠٦/٨ ح(٤٧٧٢)، وصحيح مسلم ٥٤/١ ح(٢٤).

(٢) تفسير ابن جرير ٨٨/٩، وتفسير ابن كثير ٢٠٦/٣.

(٣) والمقصود هنا الشرك الأكبر، وأما الشرك الأصغر فقد تقدم أن العلماء اختلفوا فيه، فبعضهم قال: إنه لا يغفر إلا بالتوبة منه كالأكبر، وبعضهم قال: إنه واقع تحت المشيئة كسائر المعاصي، وأصحاب القول الأول لا يحكمون بخلوده في النار بل يقولون: إنه يوازن بين حسناته وسيئاته فإن رجحت حسناته دخل الجنة، وإن رجحت سيئاته عذب في النار بقدر ذنوبه ثم يكون مآله إلى الجنة، انظر ص(٢٠).

ففي هاتين الآيتين يبين – سبحانه وتعالى – أنه لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به أحداً من خلقه، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب صغائرها وكبائرها عند مشيئته ذلك حسبما تقتضيه حكمته ورحمته [١].

قال ابن جرير: "وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله"[٢].

وقال الشوكاني عند هذه الآية: "لا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته، وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء"[٣].

وقد جاءت السنة مقررة ومؤكدة لهذه الآيات حيث وردت أحاديث كثيرة[٤] تدل على أن من مات مشركاً فهو من أهل النار، ولا يدخل في أهل الرحمة والغفران، فمن ذلك حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال النبي ﷺ: ((من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار)) [٥].

وعن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما – قال: سمعت رسول الله ﷺ: ((من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به دخل النار)) [٦].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٢٨/٤، وتفسير ابن كثير ٥٢٠/١، وتفسير السعدي ٨٠/٢.

(٢) تفسير ابن جرير ١٢٩/٤.

(٣) فتح القدير ٧١٢/١.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٥٢٠/١.

(٥)أخرجه البخاري ١٧٦/٨ ح(٤٤٩٧).

(٦)أخرجه مسلم ٩٤/١ ح(٩٣).

وعن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً، أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً)) [١].

(١)أخرجه أبو داود ٤/٤٦٢ ح(٤٢٧٠)، وصححه الحاكم ٤/٣٥١، والألباني في السلسلة الصحيحة ٢/٢٤ ح(٥١١)، وقوله في الحديث: ((أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً)) علق عليها في عون المعبود بقوله: "قال العزيزي في شرح الجامع الصغير: هذا محمول على من استحل القتل، أو على الزجر والتنفير، إذْ ماعدا الشرك من الكبائر يجوز أن يغفر وإن مات صاحبه بلا توبة"، عون المعبود ١١/٣٥٢.

الباب الثالث

أساليب القرآن ووسائله في محاربة الشرك

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أساليب القرآن في محاربة الشرك

الفصل الثاني: أساليب القرآن في مجادلة المشركين

الفصل الثالث: وسائل القضاء على الشرك ومقاومته في ضوء القرآن الكريم

الفصل الأول

أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك

وفيه مباحث:

المبحث الأول: النهي الصريح

المبحث الثاني: مخاطبة الفطرة

المبحث الثالث: الدعوة إلى التفكر في الآيات الكونية

المبحث الرابع: ذكر محاسن التوحيد

المبحث الخامس: التذكير بالنعم

المبحث السادس: التنديد بآلهة المشركين وإظهار عجزها وحقارتها

المبحث السابع: التشنيع بحال المشركين ورميهم بالسفه والضلال

المبحث الثامن: التذكير بعقوبة الله للمشركين السابقين

المبحث التاسع: بيان ما يحصل بين المشركين وشركائهم يوم القيامة

مدخل: التعريف بكلمة منهج، وأسلوب، ووسيلة

١) تعريف كلمة منهج:

المنهج في اللغة: الطريق الواضح البيِّن، وطريق نَهْج: بيِّن واضح، ومنهج الطريق وَضَحُهُ، والمنهاج كالمنهج، وأنهج الطريق: وضح واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيِّناً [١].

والمنهج في الاصطلاح: هو الطريق الواضح في التعبير عن شيء أو في عمل شيء، أو في تعلم شيء طبقاً لمبادئ معينة، وبنظام معين بغية الوصول إلى غاية معينة[٢].

ومقصودي بعنوان هذا البحث"منهج القرآن في محاربة الشرك": بيان الطريق التي سلكها القرآن الكريم في القضاء على الشرك، وحماية المسلمين من الوقوع فيه.

٢) تعريف كلمة أسلوب:

الأسلوب في اللغة: يطلق على معانٍ مختلفة منها – وهو الأنسب بالمعنى الاصطلاحي –: الطريقة التي يسلكها المتكلم في كلامه [٣].

واصطلاحاً: "هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه،

---

(١) انظر لسان العرب ٤٥٥٤/٨، والقاموس المحيط ٢٨٨/١.

(٢) معجم المصطلحات العلمية والفنية ص(٦٩٠).
و انظر المعجم الوسيط ٩٥٧/٢.

(٣) انظر لسان العرب ٢٠٥٨/٤، والقاموس المحيط ١١١/١، ومختار الصحاح ص(٢١٥)، والمعجم الوسيط ٤٤١/١.

واختيار ألفاظه"[١].

والمقصود بأسلوب القرآن الكريم: "هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه"[٢].

ولا شك أن القرآن الكريم قد سلك أروع الأساليب وأنجعها وأفضلها في التعبير عن موضوعاته وقضاياه [٣].

ومن الموضوعات القرآنية التي عالجها القرآن الكريم بأسلوب معجز، وطريقة فذَّة: الشرك، وسأذكر في الفصلين التاليين أهم الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في محاربة الشرك ومجادلة أهله.

٣) تعريف كلمة وسيلة :

الوسيلة في اللغة تطلق على معانٍ منها – وهو المقصود هنا –: ما يتوصل به إلى الشيء، وجمعها وسائل [٤].

والمقصود ب–"وسائل القضاء على الشرك ومقاومته"في هذا الباب: الأمور التي يتوصل بها إلى القضاء على الشرك والتخلص منه، وحماية المسلمين من شره، وسأذكر أهم هذه الوسائل كما جاءت في القرآن الكريم.

---

(١) مناهل العرفان ٣٢٥/٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر شرح الطحاوية ٧٦/١، والإتقان ٣٧٦//٢.

(٤) انظر لسان العرب ٤٨٣٨/٨، والمصباح المنير ص(٣٤٠).

والوسائل باصطلاح الأصوليين: الطرق المؤدية إلى تحقيق مصلحة شرعية، انظر الفروق للقرافي ٣٢/٢، والقواعد والأصول الجامعة لابن سعدي ص(١٠).

المبحث الأول: النهي الصريح

من أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك النهي الصريح عنه، حيث وردت آيات كثيرة تنهى عن الشرك بلفظه الصريح، أو تنهى عنه بعض أنواعه، وقد جاء هذا النهي بصور مختلفة منها:

١) النهي العام عن جميع أنواع الشرك، كقوله - تعالى -: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله - تعالى -: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم جميع أنواع الشرك دقيقها وجليلها.

٢) النهي عن بعض أنواعه، كالنهي عن الشرك في الخوف في قوله - تعالى-: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقوله - تعالى -: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]، والنهي عن الشرك في الطاعة في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦]، بتاء الخطاب وجزم الكاف على النهي، وهي قراءة ابن عامر[١] كما تقدم [٢]،

---

(١) هو أبوعمران عبدالله بن عامر بن يزيد اليَحْصُبي الشامي، أحد القراء السبعة المشهورين، ولي قضاء دمشق في خلافة الوليد بن عبدالملك، توفي في دمشق عام ١١٨هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٢٩٢/٥، والأعلام ٩٥/٤.

(٢) انظر ص(١٤٥)

والنهي عن الشرك في الدعاء في قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [القصص: ٨٨]، وهذا وإن كان المقصود به دعاء العبادة فإنه مستلزم لدعاء المسألة كما تقدم (١).

٣) توجيه النهي لأنبياء الله - عليهم الصلاة والسلام -، كقوله - تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله - تعالى - لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يونس: ١٠٥].

وفي توجيه النهي لأنبياء الله - صلوات الله وسلامهم عليهم - مع أنهم أكمل الخلق توحيداً وإيماناً، وأبعدهم من الوقوع في الشرك، بل هم المعصومون منه ؛ تنبيه على قبح الشرك، وعظم جرمه وخطره.

٤) ذكر النهي على لسان بعض الأنبياء والصالحين، كقوله - تعالى - عن إبراهيم - عليه السلام - حينما دعا أباه: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم:٤٢]، وقوله - تعالى - عن لقمان الحكيم في موعظة لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

٥) النهي عن كون الإنسان متصفاً بالشرك، كما قال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤]،

---

(١) انظر ص(١٧٤)

وقوله – تعالى –: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، وقوله – تعالى –: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١]، والنهي عن الكون على صفة من الصفات أبلغ من النهي عن تلك الصفة(١).

قال أبوحيان(٢): "ونهى أن يكون منهم، والنهي عن كونه منهم أبلغ من النهي عن نفس الفعل، فقولك: لا تكن ظالماً أبلغ من قولك: لا تظلم، لأن لا تظلم نهي عن الالتباس بالظلم، وقولك: لا تكن ظالماً نهي عن الكون بهذه الصفة، والنهي عن الكون على صفة أبلغ من النهي عن تلك الصفة..."(٣).

(١) انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢/٢٦.

(٢) هو أبوحيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي، الأندلسي، مفسر، محدث، لغوي، من تصانيفه: تفسيره البحر المحيط، وتحفة الأريب في غريب القرآن وغيرهما، توفي في القاهرة عام ٧٤٥هـ، انظر طبقات المفسرين ٢/٢٨٦، والأعلام ٧/١٥٢.

(٣) البحر المحيط ١/٤٣٦.

المبحث الثاني: مخاطبة الفطرة

لقد فطر[١] الله – سبحانه – عباده على توحيده، ومحبته، وتعظيمه وحده دونما سواه، وغرس في نفوسهم بطلان الشرك، وقبحه.

ولو تركت الفطر على طبيعتها وأصالتها لاتجَّهت إلى الله – وحده –، وكفرت بما سواه من الشركاء والأنداد، كما قال – تعالى –: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣١].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجِّسانه، كما تَنْتُج البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبوهريرة: واقرؤا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾)) [٢].

وفي رواية لمسلم: ((ويُشرِّكانه)) [٣].

وعن عياض بن حمار – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: ((إن الله

---

(١) الفطرة: مأخوذة من فطر: أي ابتدأ وابتدع، والمراد بها: الخِلْقَة والجبلَّة التي طبع عليها الإنسان، وركزت في نفسه.
انظر المفردات ص(٦٤٠)، وبصائر ذوي التمييز ٤/٢٠٠، ومختار الصحاح ٢١٢.

(٢) تقدم تخريجه في ص(٣١).

(٣) صحيح مسلم ٤/٢٠٤٨ ح(٢٦٥٨).

- تعالى - قال: وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحْلَلْتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنـزل به سلطاناً)) (١).

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن المراد بالفطرة في الآية والحديث: الإسلام(٢).

قال ابن كثير في تفسير الآية: "يقول - تعالى - فسدِّد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه - تعالى - فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره"(٣).

وقال ابن القيم عند هذه الآية: "فبيّن - سبحانه - أن إقامة الوجه - وهو إخلاص القصد، وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته، حنيفاً مقبلاً عليه، معرضاً عما سواه - هو فطرته التي فطر عليها عباده، فلو خُلُّوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك، ولا اختاروا سواه ؛ ولكن غُيِّرت الفطر وأُفسدت، كما قال النبي ﷺ: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه... إلى أن يقول: فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم أنه أهْلٌ أن يُعْبَد وإن لم

(١) تقدم تخريجه في ص(٢٥).

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١٠/١٨٣، وشفاء العليل ص(٤٧٨) وما بعدها، وفتح الباري ٣/٢٤٨، وفتح القدير ٤/٣١٤، وآثار حجج التوحيد ص(٥٠).

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٤٤٢.

يرسل إليهم رسولاً، و لم يترل عليهم كتاباً، ولو لم يخلق جنة أو ناراً علموا أنه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته، ولا أقبح من الإعراض عنه، وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع – سبحانه – في الفطر والعقول من ذلك، وتكميله وتفصيله وزيادته حسناً إلى حسنه فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا وتوافقا.."[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالله – سبحانه – فطر عباده على محبته وعبادته وحده ؛ فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً بالله، محباً له، عابداً له وحده ؛ لكن تفسد فطرته من مرضه كأبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وهذه كلها تُغَيِّر فطرته التي فُطر عليها، وإن كانت بقضاء الله وقدره، كما يغير البدن بالجدع، ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله – تعالى – لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة.

والرسل – صلى الله عليهم وسلم – بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها، لا لتغيير الفطرة وتحويلها"[٢].

ولما كانت الفطرة السليمة تقتضي بذاتها التوحيد وتشهد به وتستقبح الشرك وتنفر منه، انتهج القرآن الكريم في محاربته للشرك أسلوب مخاطبة الفطرة وتذكيرها بما هو مغروس فيها ؛ حيث ذكَّر المشركين بحالهم في وقت الشدة والضرورة حينما تجتمع عليهم الخطوب، وتضيق بهم الدروب، ويلحقهم الضرر، ويدنو منهم الخطر، في ذلك الوقت الذي تزول فيه عن قلوبهم الغشاوة،

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/٤٠٦.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/١٣٥.

وتنجلي عن نفوسهم الغطاوة، فيلجأون إلى الله وحده في كشف ما هم فيه، وينسون ما كانوا به يشركون.

إن نسيان الإنسان لمن كان يشرك به ويعظِّمه ويحبه، وهو في أمسّ الحاجة إلى الناصر والمعين، والمخلِّص والمجير، من أعظم الدلائل على بطلان عبادة هذا الشريك العاجز وفسادها.

يقول الإمام القزويني[١]: الدليل على أن معرفة الله واجبة[٢] كونها من الأمور التي تصل العقول إليها، فإن الإنسان إذا دهاه أمر وضاقت به المسالك فلابد أن يستند إلى إله يَتَأَلَّه له، ويتضرع نحوه، ويلجأ إليه في كشف بلواه، ويسمو قلبه صعوداً إلى السماء، ويشخص ناظره إليها...، فيستغيث بخالقه وبارئه طبعاً وجبلة، لا تكلفاً وحيلة، ومثل ذلك قد يوجد في الأطفال والوحوش والبهائم أيضاً، فإنها ظاهرة الخوف والرجاء، رافعة رؤوسها إلى السماء عند فقدان الكلأ والماء، وإحساسها بالهلاك والفناء، هذا كله مركوز في جبلة الحيوانات فضلاً عن الإنسان العاقل، وهي الفطرة المذكورة في القرآن والحديث، ولكن أكثر الناس قد ذهلوا عن ذلك في حالة السراء، وإنما يردون إليه في الضراء، قال – تعالى –: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] [٣].

---

(١) هو أبومحمد طاهر بن أحمد بن محمد القزويني، المعروف بالنجار، أديب نحوي، مشارك في علوم عدة، من مصنفاته: سراج العقول في الكلام، وغاية التصريف، توفي عام ٥٥٨هـ، انظر الوافي بالوفيات ٣٩١/١٦، ومعجم المؤلفين ٣٣/٥.

(٢) الواجب عند المتكلمين: هو الموجود الذي يمتنع عدمه امتناعاً، التعريفات ص(٢٤٩).

(٣) نقلاً عن دلائل التوحيد لجمال الدين القاسمي ص(٢٤).

والآيات الواردة في مخاطبة الفطرة وتذكيرها كثيرة، فمنها قوله – تعالى –: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥١-٥٥].

ففي هذه الآيات الكريمة ينهى الله – سبحانه – عباده عن الشرك، ويخبر بأنه هو المستحق للعبادة وحده، وأنه هو الذي يجب أن يُخاف ويُرْهَب، لأن بيده النفع والضر، وله ملك السموات والأرض، وهو الذي له الطاعة والعبادة دائماً في جميع الأوقات، فينبغي أن تُخْلَص له ويراد بها وجهه – سبحانه –، ثم ينكر – تعالى – على من يتقي غيره من الخلق، لأنه لا ينبغي أن يُتقى إلا من بيده النفع والضر، وهو الله – تعالى –، ولذلك أخبر عن نفسه – سبحانه – بأنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من عافية وصحة وسلامة، وسعة رزق فهي من فضله وجوده وإحسانه، ثم بعد هذا يذكّرهم – سبحانه – بحالهم عند الشدائد والضرورات والمهالك والملمَّات، تلك الساعة التي تنكشف عن فطرهم الغشاوة، فتبدو خالصة نقيَّة لا تتجه إلا إلى بارئها، ولا تلجأ إلا إلى خالقها.

إن الذي تفضل عليكم أيها الناس بجميع النعم، وصرف عنكم الكروب والنقم هو المستحق للعبادة وحده ؛ في الرخاء والشدة والعسر واليسر، فما بالكم تحاولون طمس نور الفطرة في نفوسكم، وتتعامون عن الحق بأفئدتكم

وقلوبكم ؛ حيث تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والضلال بعد أن أنجاكم الله – تعالى –؟

"و (إذا) في قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فجائية، والإتيان بحرف المفاجأة للدلالة على إسراع هذا الفريق بالرجوع إلى الشرك، وأنه لا يتريث إلى أن يبعد العهد بنعمة كشف الضر عنه ؛ بحيث يَفْجَأون بالكفر دفعة دون أن يترقبه منهم مترقب، فكان الفريق المعني في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم﴾ فريق المشركين.

وكفر النعمة ليس هو الباعث على الإشراك.. ولكن شُبِّهَتْ مقارنة عودهم إلى الشرك بعد كشف الضر عنهم بمقارنة العلة الباعثة على عمل ذلك العمل، ووجه الشبه مبادرتهم لكفر النعمة دون تريث، فاستعير لهذه المقارنة لام التعليل، وهي استعارة تبعية[1] تمليحية تهكمية، ومثلها كثير الوقوع في القرآن، وقد سمى كثير من النحاة هذه اللام: لام العاقبة"[2].

وفي ختام هذه الآيات يتوعد الله – سبحانه وتعالى – من اتصف بالصفات التي ذُكرت فيها – وهم المشركون به – ويقول لهم: تمتعوا في دنياكم بما آتيناكم من النعم، فإن مصيركم ومرجعكم إلى الله، وستعلمون عند لقائه عاقبة

(١) الاستعارة التبعية: هي ما كان اللفظ المستعار فيها فعلاً أو اسماً مشتقاً أو حرفاً، انظر المنهاج الواضح للبلاغة لحامد عوني ٢٣١/٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٧٨/١٤، ١٧٩، باختصار وتصرف يسير.

فعلكم، وسوء صنيعكم، وتندمون حيث لا ينفع الندم [١].

ومن الآيات الواردة في هذا الباب أيضاً قوله – تعالى –: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

وهاتان الآيتان نظير ما سبق؛ حيث يُذكِّر الله – تعالى – فيها المشركين بحالهم عند الشدائد ؛ حيث تنكشف عن قلوبهم الغشاوة، فيتجهون بفطرهم إلى الله – تعالى – لكشف ماهم فيه.

يقول الرازي عند هاتين الآيتين: "والمقصود أنه عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله – تعالى –، وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطناً، لأن الإنسان في هذه الحالة يَعْظُم إخلاصه في حضرة الله – تعالى –، وينقطع رجاؤه عن كل ما سواه، وهو المراد من قوله: ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [٢]، فبين أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخِلقة الأصلية في هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله، ولا تعويل إلا على فضل الله، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات ؛ لكنه ليس كذلك، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة، يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية، ويقدم على الشرك"[٣].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٩٥/٧، وتفسير ابن كثير ٥٩٣/٢، وتفسير السعدي ٢٠٩/٤، وأضواء البيان ٢٥٣/٣، وفي ظلال القرآن ٢١٧٦/٤.

(٢) أي جهراً بالضراعة، وهي الضعف والذل وإسرار بذلك، انظر المفردات ص(٥٠٦).

(٣) تفسير الرازي ١٨/٣.

ونظير هاتين الايتين قوله – تعالى –: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

وقد تقدم الكلام عليهما في الباب الثاني [(١)].

ومن الآيات الواردة في هذا الباب أيضاً قوله – تعالى –: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

وقوله – تعالى –: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ

(١) انظر ص (١٦٩).

تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [الزمر: ٨].

وغير ذلك من الآيات الدالة على أن الفطر تشهد بالتوحيد، وتقرُّ به، وترفض الشرك وتكفر به، وأنها وإن دُنِّسَتْ وانحرفت عن ذلك في وقت الرخاء فإنها لا تلبث أن تعود صافية نقية حينما تحس بالخطر وتشعر بالشدة والضرر، وهذا أمر مشاهد محسوس.

المبحث الثالث: الدعوة إلى التفكر في الآيات الكونية

من أساليب القرآن الكريم في محاربة الشرك دعوة الناس إلى التفكر في آيات الله الكونية ؛ حيث إن التأمل وإعمال النظر والفكر في هذا الكون الفسيح، ومشاهدة آيات الله العظيمة في الأنفس والآفاق يوجب للإنسان معرفة بالله – تعالى –، وربوبيته، ووحدانيته، وبطلان ما يعبد من دونه من الشركاء والأنداد، فإن عظمة المخلوق دليل على عظمة الخالق وقدرته، وكلّما تعرَّف الإنسان على شيء من مخلوقات الله – تعالى – ومظاهر عظمته في هذا الكون ازداد خوفاً منه، وحباً له، وإيماناً بأنه هو المستحق للعبادة وحده دونما سواه.

قال خليفة العبدي[1]: "لو أن الله – تبارك وتعالى – لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، ولكنِ المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فَمَلأَ كل شيء، وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحا سلطان الليل، وفي السحاب المسخَّر بين السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء والصيف، فو الله مازال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم – تبارك وتعالى – حتى أيقنت قلوبهم بربهم – عز وجل –، وحتى كأنما عبدوا الله – تبارك وتعالى – عن رؤية"[2].

ولقد حث الله – تعالى – في القرآن الكريم على التفكر في آياته الكونية،

---

(١) لم أجد له ترجمة، وإنما ذكره أبونعيم في الحلية ٣٠٣/٦، وابن الجوزي في صفة الصفوة ٦٦/٤، وذكرا شيئاً من زهده وتقواه، ولم يتعرضا لنسبه أو وفاته. وقال ابن قُطْلُوْبَغَا في الثقات ١٦٤/٤: "من عبَّاد أهل الكوفة، ماله حديث يرجع إليه، وله الحكايات في العبادة".

(٢) أخرجه أبوالشيخ الأصفهاني في كتاب العظمة ٣٢٦/١، وقال محقق الكتاب: إسناده جيد.

وأثنى على المتفكرين فيها والمستبصرين بها، وذم من لا يتفكر في مخلوقاته الدالة على وحدانيته وعظمته، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك [١].

والمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أن الله – تعالى – يلفت أنظار المشركين إلى مظاهر عظمته في هذا الكون، ويستدل بذلك على بطلان الشرك وفساده [٢]، والآيات الواردة في هذا المعنى كثيرة جداً، ولا يتسع المقام للإحاطة بها، وتفصيلها، وذكر ما توصل إليه العلم الحديث من الحقائق المذهلة التي تكشف عن شيء من أسرارها، وإنما سأذكر نماذج قليلة من تلك الآيات مع تعليق موجز عليها.

وهذه الآيات الكونية التي دعا الله – تعالى – إلى التفكر والتأمل فيها،

---

(١) انظر ص (٧٧).

(٢) يذكر بعض المتكلمين للاستدلال على وجود الله ما يسمى عندهم بدليلي الخلق والعناية، ويقصدون بدليل الخلق أو الاختراع: أن كل ما في هذا الكون من الموجودات مخلوق مخترع، وهذا المخلوق المخترع لابد له من خالق، وأما دليل العناية: فيقصدون به وجود النظام الدقيق المحكم في شؤون الكون ؛ بحيث إنه لو وجد بغير هذه الكيفية لاختل نظام الحياة وتعطلت مصالح الخلق، فهذا يدل على أن هناك إلهاً واحداً يدبّر هذا الكون، ويصرف شؤونه، ويستشهدون بالآيات القرآنية.

ويرى بعض المعاصرين أن هذين الدليلين يدلان أيضاً على توحيد الألوهية وبطلان الشرك، ويبدو لي أن هذين الدليلين لا يدلان على إثبات الألوهية وبطلان الشرك إلا بطريق الالتزام، فإن أنواع التوحيد متلازمة، والشرك في الربوبية مستلزم للشرك في الألوهية، انظر مناهج الأدلة لابن رشد ص(١٥٠-١٥٤)، ودلائل التوحيد للقاسمي ص(٣٢) وما بعدها، وعقيدة التوحيد في القرآن الكريم لمحمد أحمد ملكاوي ص(١٤٢)، ومباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم ص(١٢١) وما بعدها.

وتدبّرها، يقسمها بعض العلماء[١] إلى قسمين:

القسم الأول: دلالة الأنفس: وهي ما في خلق الإنسان من العجائب، والأسرار العظيمة.

والقسم الثاني: دلالة الآفاق: وهي آيات الله الباهرة، ومعجزاته الظاهرة في هذا الكون ؛ من السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والجبال، والشجر، والدواب وغير ذلك من المخلوقات العظيمة في البراري والبحار.

وقد جمع الله – تعالى – بين هاتين الدلالتين في قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ففي هذه الآية يخبر – سبحانه – أنه سيظهر للمشركين المكذبين لكتابه، والمنكرين صدق رسوله ﷺ الدلائل والبراهين على بطلان قولهم من خلال آياته العظيمة ومعجزاته الباهرة في السماء والأرض وما فيهما من الدلائل الواضحة لكل مستبصر، ويظهر ذلك أيضاً من خلال أنفسهم وما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله، وعجائب قدرته، وباهر صنعته [٢].

---

(١) انظر: إيثار الحق على الخلق لابن المرتضى اليماني المشهور بابن الوزير ص(٤٥)، وقد جعل هاتين الدلالتين مع دلالة المعجزات طرق معرفة لله – تعالى –.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٢٥/١١، وتفسير ابن عطية ١٩٩/٤، وتفسير القرطبي ٢٤٤/١٥، وتفسير ابن كثير ١١٣/٤، وتفسير السعدي ٥٩٠/٦، وأضواء البيان ٧٤/٧.
وفي المراد بالأنفس والآفاق أقوال أخرى، انظر المصادر السابقة.

آيات الله في الأنفس:

أما النفس الإنسانية ففيها من الآيات العظيمة، والعجائب الكثيرة ما يدل دلالة واضحة على عظمة الله ووحدانيته، وبطلان ما يعبد من دونه من الشركاء والأنداد.

ولقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن خلق الإنسان، وتطوره من حال إلى حال، واشتماله على الآيات العظيمة، والخصائص الكثيرة من العقل، والسمع، البصر، واللسان وغير ذلك من الجوارح والحواس، ودعا إلى التفكر في ذلك والاعتبار.

قال ابن القيم: "يدعو الله – سبحانه وتعالى – في كثير من آيات القرآن العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذْ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، وهو غافل عنه، معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره، قال الله – تعالى –: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

فلم يكرر – سبحانه – على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة، والعلقة، والمضغة، والتراب، ولا لنتكلم بها فقط، ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، وهو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث..."[1]، ثم شرع – رحمه الله – يتحدث عن خلق الإنسان، وحواسه،

(١) مفتاح دار السعادة، بتصرف يسير ١/١٩٤.

وجوارحه، وما في ذلك من المعجزات الباهرة، والحكم البالغة، والآيات الواضحة، من مبدأ خلقه إلى منتهاه[١].

وفيما يلي أذكر نماذج قليلة من الآيات التي يدعو الله – تعالى – فيها عباده إلى التفكر في أنفسهم، وما تحويه أجسامهم من الآيات العظيمة الدالة على عظمته ووحدانيته، وبطلان ما يعبد من دونه، فمنها قوله – تعالى –: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۚ ﴾ أيها الناس آيات وعبر تدلكم على وحدانية صانعكم، وأنه لا إله لكم سواه، إذْ كان لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه إياكم، ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ يقول: أفلا تنظرون في ذلك فتتفكرون فيه، فتعلموا حقيقة وحدانية ربكم"[٢].

وفي كثير من الآيات يذكر الله – تعالى – مبدأ خلق الإنسان، والأطوار التي يمر بها حتى يصبح بشراً سوياً، ثم بعد ذلك يَضْعف ويشيخ ويهرم، ثم يموت، ويستدل بذلك – سبحانه – على وحدانيته وبطلان ما يعبد من دونه، كما قال – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ

(١) انظر المرجع السابق ١/١٩٤، ١/٢٠٢.

(٢) تفسير ابن جرير ١/٤٦٠.

لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥-٧].

أجل إن خلق الإنسان، ومراحل نموه التي يمر بها في بطن أمه، ثم خروجه إلى هذه الدنيا طفلاً فشاباً فكهلاً فشيخاً ؛ دليل قاطع، برهان ساطع، على وحدانية الله – تعالى –، وبطلان الشرك.

قال ابن جرير عند قوله – تعالى –: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ : "ذلك الذي فعل ذلك هو الحق لا شك فيه، وأن من سواه مما تعبدون من الأوثان والأصنام باطل ؛ لأنها لا تقدر على فعل شيء من ذلك"(١).

وقال السعدي: "أي الرب المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة"(٢).

وفي آيات أخرى يذكر – سبحانه وتعالى – منّته على عباده بأن رزقهم قلوباً يفقهون بها ويميزون بين ما ينفعهم وما يضرهم، وأسماعاً يسمعون بها الأصوات، وأبصاراً يشاهدون بها الأشياء، ويستدل بذلك على وحدانيته

(١) تفسير ابن جرير ١١٣/٩.

(٢) تفسير السعدي ٢٧٦/٥.

وبطلان ما يعبد من دونه ؛ لأنه هو المنعم المتفضل بهذه الأعضاء وغيرها، فينبغي أن يشكر عليها ؛ وذلك باستعمالها في طاعته وحده دونما سواه.

قال – تعالى –: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

وقال – تعالى –: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣].

قال ابن جرير عند قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: "فعلنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من ذلك، دون الآلهة والأنداد، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نعمة شريك"(١).

ومازال العلماء يكتشفون يوماً بعد يوم الكثير من الحقائق المذهلة، والمعجزات العجيبة، والأسرار البديعة التي أودعها الله – سبحانه – الجسم الإنساني (٢)، مما يدل دلالة واضحة على عظمة الله ووحدانيته، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

يقول أبو الشيخ الأصبهاني(٣): "إذا تفكر العبد في نفسه استنارت له آيات

(١) تفسير ابن جرير ٦٢٥/٧.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ١٩٣/١، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار، والطب محراب الإيمان، للدكتور خالص جلبي.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، المعروف بأبي الشيخ، محدث، مفسر، من تصانيفه: التفسير، وكتاب العظمة، توفي عام ٣٦٩هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٢٧٦/١٦، ومعجم المؤلفين ١١٤/٦.

الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غَمَرَاتُ[١] الشك، وظلمة الريب، وذلك إذا نظر إلى نفسه وجدها مكوَّنة مكنونة [٢]، مجموعة مُنَضَّدة [٣]، [٣]، مصوَّرة متركبة بعضها في بعض، فيعلم أنه لا يوجد مُدَبَّر إلا بمُدَبِّر، ولا مُكَوَّن إلا بمكوِّن، ونجد تدبير المدبر فيه شاهداً دالاً عليه كما تنظر إلى حيطان البناء وتقديرها، وإلى السقف المسقَّف فوقه بجذوعه وعوارضه، وتطيين ظهره ونصب بابه وإحكام غلقه ومفتاحه للحاجة إليه، فكل ذلك يدل على بانيه، ويشهد له، فكذلك هذا الجسم إذا نظرت إليه وتفكرت فيه وجدت آثار التدبير فيه قائمة شاهدة للمدبر دالة عليه، فقد أيقن الخلائق كلهم أنهم لم يكونوا من قبل شيئاً، ولا كان لهم في الأرض أثر ولا ذكر، فصاروا وهم لا يشعرون أنفساً معروفة مصورة مجسومة،قد اجتمعت فيها جوارح وأعضاء بمقدار حاجتهم إليها، لم يزد لهم على ذلك و لم ينقص..."[٤].

آيات الله في الآفاق:

أما آيات الله – تعالى – في هذا الكون الفسيح فكثيرة جداً [٥]، ولا يمكن يمكن لأحد أن يحيط بجزء منها، فضلاً عن أن يحصيها ويحصرها، والإنسان إذا قلَّب نظره في هذا الكون فإنه عينه لا تقع إلا على آية من آيات الله ومعجزة من

---

(١) غَمرات مأخوذة من غَمَرَه إذا ستره وغطاه، لسان العرب ٣٢٩٥/٦.

(٢) مكنونة: مستورة، مختار الصحاح ص(٢٤٢).

(٣) مُنَضَّدة: مأخوذ من نَضَدَ الشيء: أي وضع بعضه على بعض، مختار الصحاح ص(٢٧٧).

(٤) كتاب العظمة ٢٧١/١، بتصرف يسير.

(٥) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٠٢/١ وما بعدها، وقصة الإيمان لنديم الجسر.

معجزاته تدل أنه الإله الواحد الحق، وأن كل ما يعبد من دونه فهو باطل.

فيا عجباً كيف الإله ** أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ** وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شي له آية ** تدل على أنه الواحد[1]

ولقد ذكر الله – تعالى – في القرآن الكريم صوراً كثيرة من مظاهر عظمته في هذا الكون وأمر بالتفكر فيها والاعتبار والاستدلال بها على وحدانيته وبطلان ما يعبد من دونه، فمن ذلك قوله – تعالى –: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "يقول – تعالى – ذكره: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله، في ملك الله وسلطانه في السموات وفي الأرض، وفيما خلق – جل ثناؤه – من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومِن فِعْل مَنْ لا تنبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه...، فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه – الذي آتاهم به من عند الله في آي كتابه – يصدقون، إن لم

(١) الأبيات لأبي العتاهية، انظر ديوانه ص(١٢٢).

يصدقوا بهذا الكتاب الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله – تعالى–"[١].

ومنها قوله – تعالى –: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

ففي هذه الآية يرشد الله – سبحانه – عباده إلى التفكر في السموات والأرض وما فيهما من الآيات الباهرة والمعجزات الخالدة، فإن في ذلك دلالة واضحة على أن الله – تعالى – هو المعبود الحق، وأن كل ما يعبدون من دونه باطل، ولكن من سبق له من الله الشقاء – بسبب عناده وإعراضه – لا تنفعه الآيات، ولا تؤثر فيه البراهين والمعجزات [٢].

وهاتان الآيتان[٣] يدعو الله – سبحانه – إلى التفكر في الآيات الكونية عموماً، وهناك من الآيات القرآنية ما يدعو الله – سبحانه وتعالى – فيها إلى التفكر في آيات معينة من آياته الكونية، فمن ذلك:

١) السموات والأرض:

فإن خلق السموات ورفعها بغير عمد، وخلق الأرض وتذليلها وجعلها فراشاً ومهداً تقوم عليها مصالح العباد وتستقيم فيها أمور معايشهم= من أعظم الدلائل على عظمة الله ووحدانيته وبطلان ما يعبد من دونه، قال – تعالى –:

---

(١) تفسير ابن جرير ٦/١٣٥.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٦/٦١٦، وتفسير ابن كثير ٢/٤٤٩، وتفسير السعدي ٣/٣٩٤.

(٣) وهما قوله – تعالى –: (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقوله (قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ).

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦]، وقال – تعالى –: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠]، وقال – تعالى –: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٣]، وقال – تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وفي هاتين الآيتين يأمر الله – تعالى – الناس جميعاً أن يعبدوه وحده، وينهاهم أن يتخذوا معه الأنداد والشركاء، ثم يستدل – سبحانه – على وجوب إفراده بالعبادة وترك الشرك بمنته عليهم بأن أوجدهم وآباءهم من العدم، ورباهم بالنعم الظاهرة والباطنة ؛ حيث جعل لهم الأرض فراشاً يستقرون عليها وينتفعون بها، وجعل لهم السماء سقفاً وأودع فيها ما يحتاجون إليه في أمور معاشهم، وأنزل لهم من السحاب ماءً، أخرج به من أنواع الثمرات ما هو رزق لهم ولأنعامهم.

فالذي يعلم أن هذه الآيات الباهرة والنعم الكثيرة الظاهرة والباطنة هي من عند الله وحده لا ينبغي له أن يعبد معه غيره ؛ فَيُسَوِّي المخلوق الضعيف الفقير العاجز بالإله الخالق المنعم المتفضل [1].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١/٦٠، وتفسير ابن كثير ١/١٩٥، وتفسير السعدي ١/٥٧.

قال الزمخشري عند هذه الآية: "أي هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة، والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية، فلا تتخذوا له شركاء"(١).

٢) الشمس والقمر والليل والنهار:

ومن آيات الله العظيمة الدالة على وحدانيته وعظمته، وبطلان ما يعبد من دونه؛ الشمس والقمر وحركتهما الدائبة التي ينشأ عنها حدوث الليل والنهار، وتعاقبهما على نحو منتظم محكم، تتحقق به مصالح العباد، وتستقيم عليه أمور معايشهم.

وقد دعا الله - سبحانه - في آيات كثيرة من القرآن الكريم إلى التفكر في خلق الشمس والقمر، والتأمل في تعاقب الليل والنهار، وما في ذلك من الأسرار العظيمة والحكم الكثيرة، والاستدلال بذلك على وحدانيته، وبطلان ما يعبد من دونه، كما قال - تعالى -: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

وقال - تعالى -: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٦].

وقال - تعالى -: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ

---

(١) الكشاف ١/٤٧.

وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦١-٦٢].

قال ابن جرير عند هذه الآية: "أي هذا الفعل الذي فعلت من إيلاجي الليل في النهار، وإيلاجي النهار في الليل لأني أنا الحق الذي لا مثل لي ولا شريك ولا ند، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلهاً من دونه هو الباطل الذي لا يقدر على صنعة شيء، بل هو المصنوع"(١).

وقال - تعالى -: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

قال ابن كثير عند هذه الآية: "ينبه الله - تعالى - خلقه في هذه الآية على قدرته العظيمة وأنه لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر، فهو الذي خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله في فلكه، وتقدير سيره في سمائه ؛ ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبه - تعالى - على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال:

(١) تفسير ابن جرير ١٨٣/٩.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ أي ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به"[1].

٣) الرياح والمطر والنبات:

ومن آيات الله – تعالى – العظيمة الباهرة التي يستدل بها – سبحانه – على وحدانيته وعظمته، وبطلان ما يعبد من دونه، هذه الرياح العظيمة المتنوعة التي تثير السحاب وتلقّحه، فيترل من السماء ماءً مدراراً يحيي به الله الأرض، وينبت به الزرع، ويخرج به من كل الثمرات، مختلفة ألوانها، متنوعة طعومها، إن من يتأمل هذه الآيات العظيمة وما تحويه من العجائب والحكم والأسرار يوقن يقيناً لا يخالطه شك بأن الله – تعالى – هو الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، وأن جميع ما يعبد من دونه في غاية البطلان.

والمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أن الله – تعالى – يدعو عباده إلى التفكر في هذه الآيات – الرياح والمطر والنبات –، والاستدلال بها على وحدانيته وبطلان ما يعبد من دونه، كما قال – تعالى –: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

ففي هذه الآية يقرر الله – سبحانه – انفراده بالألوهية، ويوبخ المشركين الذين يعدلون به غيره، وذلك بذكر بعض مظاهر عظمته في هذا الكون ؛ فهو

---

(١) تفسير ابن كثير ١١٥/٤ بتصرف، و انظر تفسير ابن جرير ١١٢/١١.

الذي يهدي عباده حينما يضلون في الطرق البرّية أو البحريّة، وهو الذي يرسل الرياح مبشرةً بنزول المطر ؛ حيث تثير السحاب، ثم تؤلف بينه، ثم تجمعه، ثم تُلَقِّحُه، ثم تُدِرُّه، إن من يفعل هذا هو المستحق للعبادة وحده، فهل يستطيع أحد أن يفعل مثل فعله حتى يُعْدَل به؟ تعالى الله عما يشركون (١).

وقال - تعالى -: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٣-٤٤].

وفي هاتين الآيتين يذكر الله - تعالى - آية من آياته العظيمة الدالة على وحدانيته وعظمته، وبطلان ما يعبد من دونه، وذلك أنه - سبحانه - يسوق السحاب متفرقاً ثم يجمع بين أجزائه، ثم يجعله متراكماً بعضه فوق بعض، فيُرى المطر ينزل من خلل السحاب، فيسقي الله به الأرض، وينتفع به الخلق، وتارة ينزل - سبحانه - من السحاب بَرَداً يتلف ما يقع عليه من الزروع والأموال، فيصيب به - سبحانه - من يشاء من عباده، ويصرفه عمن يشاء بحسب ما تقتضيه حكمته، وهذا السحاب فيه بَرْق عظيم يكاد ضوؤه يخطف الأبصار من شدة نوره ولمعته.

أليس الذي أنشأ هذا السحاب وساقه، وجمع بينه ثم أنزل منه المطر الذي

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٦/١٠، وتفسير ابن كثير ٣٨٤/٣، وتفسير السعدي ٥٩٣/٥، والتحرير والتنوير ٢١/١٧.

تحيا به الأرض، ويخرج به الزرع هو الإله الحق المستحق للعبادة وحده دونما سواه؟.

ثم ذكر – سبحانه – آية أخرى من آياته ؛ وهو أنه يعاقب بين الليل والنهار، ويتصرف فيهما بالزيادة والنقصان، ويغاير فيهما الأحوال بالبرد والحر، والعسر واليسر، والسعادة والشقاء.

إن في هذه الآيات لعبرة وعظة لأصحاب العقول النيّرة المستقيمة، فهلاّ اعتبر بها المشركون الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى وانتهوا عن شركهم؟ (١).

قال ابن جرير عند قوله – تعالى –: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾: "إن في إنشاء الله السحاب، وإنزاله منه الودق، ومن السماء البَرَد، وفي تقليبه الليل والنهار لعبرة لمن اعتبر به، وعظة لمن اتعظ به، ممن له فهم وعقل، لأن ذلك ينبئ ويدل على أن له مدبِّراً ومصرفاً ومقلباً لا يشبهه شيء"(٢).

وقال – تعالى –: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

وفي هذه الآية يقرر الله – سبحانه وتعالى – وحدانيته، وبطلان ما يعبد من دونه من خلال ذكر آية من آياته العظيمة في هذا الكون، وهي أنه – سبحانه – يشق الحب والنوى، فيخرج منها أنواع الزروع على اختلاف ألوانها وأشكالها

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٧/٩، وتفسير ابن كثير ٣٠٨/٣، وتفسير السعدي ٤٣٠/٥، والتفسير المنير ١٦٥/١٨.

(٢) تفسير ابن جرير ٣٣٩/٩.

وطعومها، فكيف ينصرف هؤلاء المشركون عن عبادة الله – تعالى – ويصدون عنها مع مشاهدتهم لهذه الآيات العظيمة الدالة على الوحدانية؟ (١).

قال ابن جرير عند هذه الآية: "وهذا تنبيه من الله – جلّ ثناؤه – لهؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم، وتعريف منه لهم خطأ ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياه، يقول – تعالى ذكره – إن الذي له العبادة أيها الناس دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان هو الله الذي شق الحب من كل ما ينبت من النبات، فأخرج منه الزرع، وشق النوى من كل ما يغرس ماله نواة فأخرج منه الشجر..."(٢).

وقال – تعالى –: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام: ٩٩].

قال ابن جرير عند قوله – تعالى –: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾: "إن في إنزال الله المطر من السماء الذي أخرج به نبات كل شيء والخَضِر الذي أخرج منه الحب المتراكب، وسائر ما عدد في هذه الآية من

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٧٥/٥، وتفسير ابن كثير ١٦٣/٢، وتفسير السعدي ٤٣٨/٢، والتحرير والتنوير ٣٨٧/٧.

(٢) تفسير ابن جرير ٢٧٥/٥، بتصرف يسير.

صنوف خلقه ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ يقول: في ذلك أيها الناس إذا أنتم نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه، علمتم أن له مدبِّراً ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد، وكان فيه حجج وبرهان وبيان ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يقول: لقوم يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء.

وخص بذلك - تعالى ذكره - القوم الذين به يؤمنون، لأنهم هم المنتفعون بحجج الله والمعتبرون بها، دون من قد طبع الله على قلبه، فلا يعرف حقاً من باطل، ولا يتبين هدى من ضلالة [1].

(١) تفسير ابن جرير ٥/٢٩١.